
25
حضارة
فى الخليج العربى
محمود عبد الفتاح
MR
مركز الراية للنشر والإعلام

محمود حسن عبدالفتاح

25 حضارة في الخليج العربي

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام

٢٠١٢

اسم الكتاب: 25 حضارة في الخليج العربي
اسم المؤلف: محمود حسن عبدالفتاح
الترقيم الدولي: I.S.B.N: 978-977-354-255-7

الطبعة الأولى
٢٠١٢

الناشر
مركز الراية للنشر والإعلام - القاهرة
أسسه أحمد فكري عام ١٩٩٣

٣٠ ميدان الحسين- مكتبة فكرى
ص. ب ٢٥٨ العتبة- القاهرة- الرمز البريدي ١١٥١١
تليفون وفاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٨٧٠٩٠٦
البريد الإلكتروني: alraya93@yahoo.com

حضارة الخليج العربي

يعتقد البعض أن الساحل الغربي للخليج العربي ليس له عمق حضاري، ولا عهد له بالحضارة، وأنه لم يعرفها إلا بعدما هبطت عليه الثروة النفطية، وحتى هذه الحضارة بناها على أكتاف الآخرين.

وهذه نظرة سطحية بنيت على الجهل بشخصية الإنسان الخليجي، وكفاحه ونضاله، فأنت إذا أردت أن تعرف شعباً لابد لك أن تعرف العناصر البشرية المكونة له، وكيف كان يعيش؟ وكيف كان يفكر؟ وكيف كان يعمل؟ أي تغوص في أعماق نفسه، وتعيش معه حياته بآلامها وآمالها، بأفراحها وأتراحها، بل تعيش معه حتى ساعات لهوه وتسليته، فهذه التفاصيل عن الحياة الاجتماعية للشعوب تعرفنا بمعادنها، وبحضارتها، وبقدرتها على مواجهة الخطوب، وعلى الابتكار والإبداع وقصة الإنسان الخليجي تحمل بين طياتها قصة كفاح وصبر عبر قرون خلت تبين لنا كيف كافأ الله عز وجل هذا الإنسان على صبره وقوة إيمانه بمصدر أساسي من مصادر الثروة يشكل عصب حياة هذا العصر، فعوضه عن سلعة كمالية (اللؤلؤ) بسلعة أساسية (البترول).

ويرى بعض المؤرخين أن الخليج العربي هو مهد الحضارة، بل مهد الجنس البشري، وأن الكنعانيين، ومنهم الفينيقيين، كانوا يقطنون سواحله الغربية قبل نزوحهم إلى سواحل الشام وفلسطين، وأن سفنهم مخرت مياهه قبل أن تنزل إلى البحر الأبيض المتوسط، فكانوا يتاجرون مع الهند وإيران وسواحل الجزيرة العربية الجنوبية وإفريقية.

ومن هؤلاء المؤرخين اليوناني (هيرودتس) (٤٨٤ – ٤٢٥ ق.م)، و(استرابو) الجغرافي الروماني (٦٤ ق.م – ١٩ للميلاد) الذي أشار إلى المقابر الموجودة في جزر البحرين بأنها تشبه مقابر الفينيقيين، وأن سكان هذه الجزر يذكرون بأسماء جزرهم ومدنهم هي أسماء فينيقية، وقال أيضاً: إن في بعض هذه المدن هياكل تشبه الهياكل الفينيقية الشامية.

ومن أقدم الممالك التي قامت على الخليج العربي مملكة (أرض البحر) انبعثت في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، وكانت تسيطر على منطقة تمتد من قرب مصب شط العرب إلى جزائر البحرين، وفي النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد لعبت هذه الدولة أو التي خلفتها دوراً هاماً في جنوبي غربي آسيا، ويبدو أنها تضم بابليين وعرباً، وقد قضى الكيشيون عليها في أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك بخمسة قرون قامت دولة ثانية في أرض البحر لم تعمر طويلاً وبعد فترة قصيرة أخذ اسم (أرض البحر) يتردد في نقوش الملوك الآشوريين وذلك من زمن (شلناصر الثالث) (٥٨ – ٨٢٤ ق.م) إلى زمن (سنحاريب) (٠٥ – ٦٨١ ق.م) حيث قام آخر ملوك (أرض البحر) بثورة على سيده سنحاريب الذي تمكن بواسطة أساطيله البحرية التي بناها الفينيقيون الذين جاء بهم إلى عاصمته (نينوى) أن يهزم ملك (أرض البحر) الذي لجأ إلى عيلام التي تقع في الجنوب الغربي من إيران وتمتد إلى الخليج العربي.

هذا وقد أشار بعض المؤرخين إلى أن جزيرة (دلمون – المنامة) كانت مركزاً للحضارة السومرية، وموقعاً تجارياً عظيماً منذ أيام السومريين (٣٠٠٠ ق.م) بين العراق والهند وغيرها، فلقد كان الخليج ممراً حيوياً للتجارة وشتى

أنواع العلاقة بين كتل السكان الكبيرة في مناطق الزراعة والحضارة في العراق والسند، واستمرت هذه العلاقة الهامة عبر الخليج خلال كل العصور التاريخية بدرجات متفاوتة، وبخاصة في عصور ازدهار الممالك التي تحكم رأس الخليج سواءً كانت فارسية أو سلوقية أو ساسانية أو إسلامية عباسية، مع الأخذ في الاعتبار أن الخط الملاحي تعدى بلاد السنة إلى الهند وأفريقية والصين من الألف الأولى قبل الميلاد على الأقل.

ومن بركة الله على الجزيرة أن دانت لرسالة السماء وتوحدت في عام الوفود (التاسع للهجرة) سياسياً لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام، بالرغم من أنها عرفت نشوء الدويلات، ونظم الدويلات قبل الإسلام كدولة (معين وسبأ وحمير وكندة والغساسنة والمناذرة)، وذلك في أقل من عشر سنوات، رغم قوة الروح الفردية، وتغلغل العصبية القبلية والنزعات الجاهلية.

وفي الخليج العربي ظهر أشهر ملاح عربي هو (أحمد بن ماجد)، كما نشأت على ضفافه دولة عُمان البحرية القوية التي استطاعت فتح جنوبي إيران وسيطرت على أفريقية الشرقية، وفي أوائل هذا القرن كان الخليج العربي ينتج نصف محصول العالم من اللؤلؤ، وكان يقدر عدد المراكب التي تفتش عن اللؤلؤ آنذاك ثلاثة آلاف وخمسمائة مركبة.

سكان دول المجلس

تشير الإحصاءات المتوفرة لدى الأمانة العامة من الجهات المختصة بالدول الأعضاء إلى أن عدد السكان أخذ في النمو والزيادة، وقد بلغ عدد سكان دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عام ١٩٩٥م أكثر من ٢٦ مليون نسمة، يشكل سكان المملكة العربية السعودية ٣٢،٧٠٪، دولة

١

حضارة دلمون

دلمون هي مملكة صغيرة نشأت في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد واستمرت حوالي ٣ آلاف سنة وكانت تتألف من جزيرة دلمون (أي البحرين اليوم) ومن المنطقة الشرقية من المملكة السعودية اليوم. أمّا سكّانها فكانوا من الساميين.

وكان سكّان دلمون يدفنون الأموات من محاربيهم في آكام من الصخور تسمى "طعوسا". ولا تزال هذه الآكام صامدة حتّى يومنا هذا، تضفي على البلد رونقاً خاصاً إذ يتراوح ارتفاعها من ٤ إلى ٩ أقدام وقطرها من ١٠ إلى ٢٤ قدماً عند القاعدة. ويظن بعض الباحثين أنّ البحرين تضم أكبر مقبرة في العالم كلّه.

كانت هذه المنطقة منذ القدم محط إعجاب ودهشة بسبب المياه الوفيرة التي تتدفّق في جنباتها. لذلك نرى في الجزء الشمالي من الجزيرة حدائق غنّاء تتوق العين إلى التمتع بروعتها وسحرها. وكان الأقدمون يعتبرون هذه المياه مقدسة، لا بل هدية من السماء بسبب ندرتها في هذه البقعة من العالم حيث تشتد حرارة الشمس والقيظ.

دلمون والسومريون:

قدم السومرون إلى وادي الرافدين قبل ٣٠٠٠ سنة من الميلاد وأقاموا في تلك المنطقة. أما ماضي هذا الشعب ووطنه الأم فهما أمران لا يزالان مجهولين حتى اليوم. غير أنّ أساطيرهم تأتي على ذكر مكان يُدعى دلمون غني بالمياه العذبة ويعبد سكانه الالهين انكي ونينخورساك. ويبيّن أقدم نص تاريخي ذكرت فيه دلمون كُتب حوالي (٢٥٠٠ ق.م) أنّ هذه المنطقة كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع الولاية السومرية لاغاش التي كانت ترسل إليها التمر والنحاس والخام.

دلمون والأكاديين:

حوالي سنة ٢٣٦٠ ق.م. قام ملك يدعر سرجون الأكادي بموجة من الفتوحات فسيطر على الدويلات السومرية ووصل إلى عيلام وسوريا والجزيرة الواقعة جنوب البحر الواطئ ومن ثمّ دلمون. غير أنّ دلمون عادت واستعادت حرّيتها واستقلالها بعد فترة وجيزة. ولكن فترة الاستقلال هذه لم تدم طويلاً إذ عاد ملك أكادي آخر واحتلها.

دلمون والبابليون:

مع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد بدأ الأكاديون يتضاعفون تدريجياً لتحل مكانهم إمبراطورية أخرى تعود إلى البابليين. وتدل الوثائق إلى أنّ دلمون كانت تحت سيطرتهم منذ ١٩٨٧ ق.م. وظلّ البابليون يبسطون نفوذهم على هذه المنطقة حتّى سنة ١٢٦٠ ق.م. عندما بدأ الآشوريون يطالبون بالسيطرة على دلمون.

دلمون والآشوريون:

منذ القرن الثامن قبل الميلاد راح الآشوريون يلجأون إلى القوة والقمع للاستيلاء على البلاد المجاورة. وقد دفعت هذه السياسة عدداً كبيراً من الدول إمّا إلى الاستسلام أو إلى الحرب. ويعني هذا الحل الأخير الدمار والقتل. وساهم في نجاح الآشوريين الجيش الذي أحسنوا إعداده وتدريبه.ولم يختلف مصير دلمون عن مصير غيرها من الدول فأراد سرجون الآشوري (٧٢٢-٧٠٥ ق.م)، وهو يعشق التمثّل بالزعيم الأكادي الذي يحمل اسمه، أن يسيطر على دلمون كما فعل سرجون الأكادي. ولم تسقط دلمون بين أيدي الآشوريين غلاّ على عهد آشور بانيبال. غير أنّه حوالي سنة ٦٠٥ ق.م. سقطت الإمبراطورية الآشورية فتحررت شعوب المنطقة كلّها من هذا المستعمر المتعطش للدماء.

أسطورة دلمون:

في الأزمان الغابرة منحت جزيرة دلمون إلى الالهين انكي (سيد الأرض ومصدر الذكاء والفهم والإخصاب وهو يمثّل القوّة الممكنة في الماء) ونينهر ساجا (الأرض الأم) ليتقاسماها.

واستجابة لطلب نينهر ساجا، دفق انكي بالمياه على دلمون. ومن ثمّ تودّد إلى نينهر ساجا وطلب يدها. فقبلت هذه الأخيرة بعد تردّد بسيط. وتأتي ثمرة هذا الزواج إلهة النبات نينار. غير أنّ انكي لم يمكث بالقرب من نينهر ساجا، بل ظلّ يطوف في الجزيرة سائلاً رقراقاً. ومع نهاية فصل الربيع توجه إلى حافة النهر حيث رأى للمرة الأولى نينار بعد أن تحوّلت إلى شابة نظرة، لا سيّما وأن النباتات تتكاثر وتخضر على ضفة النهر في ذلك الوقت. فأعجب بها

وأغواها فأنجب إلهة الخيوط الليفية. وهكذا راحت تتكرّر هذه الحكاية فولدت إلهة الصباغة التي أنجبت اوتو إلهة الثياب والنسيج.

وعند هذه النقطة تحاول نينهر ساجا أن تنبه أوتو من امكي، غير أنها لم تستمع لتحذيره بل سقطت سكرى بين يدي حبيبها الذي غمرها بالهدايا.

ثمّ قام انكي بابتلاع ثمانية من الآلهة مما أثار غضب نينهر ساجا التي لعنته فوراً. فمرض انكي وتكدست المياه في باطن الأرض وراحت الحياة تذبل شيئاً فشيئاً. فتدخلت الآلهة طالبة من نينهر ساجا أن ترحم انكي وتشفق عليه. فتستجيب نينهر ساجا للطلب وتساعد انكي على الشفاء وينجبان ثمانية آلهة هي نفسها التي ابتلعها... فتعود الحياة إلى التدفق والجريان.

دلمون في الأساطير السومرية والبابلية:

لم يكن الربط بين اسم دلمون القديمة والبحرين الحديثة أمراً سهلاً..حقاً لقد عرف علماء الآشوريات في القرن الماضي أنّ هناك مكاناً يسمى دلمون يتمتع بأهمية خاصة في الأساطير السومرية والبابلية القديمة وفي التاريخ السياسي لشعوب ما بين النهرين إلى حد ما، ولكن ما حقيقة هذا الاسم، هل هو مكان أسطوري أم مكان حقيقي؟ وإذا كان مكاناً حقيقياً كما هو الأرجح فأين يقع؟ إنّ أقصى ما كانت تفيده الوثائق القديمة أنّ دلمون مملكة تقع إلى الجنوب من بابل.

ولم يهتم علماء الآشوريات في القرن الماضي اهتماماً جدياً بالبحث عن مكان دلمون أو التحقق من وجودها. فقد كانت هذه المسألة تبدو لهم ذات أهمية ثانوية بالنسبة للمسائل الخطيرة الأخرى التي بدأت تثيرها الاكتشافات

الرائعة المتوالية في بلاد ما بين النهرين والتي جعلت أذهان العلماء تنصرف تماماً إلى اكتشاف تلك الحضارات القديمة التي قامت تباعاً في المنطقة وكانت إلى جانب الحضارة المصرية المزدهرة على ضفاف النيل بمثابة لبنات الأساس للتاريخ العالمي كله، فلماذا يشغل هؤلاء العلماء أنفسهم إذن بالبحث عن حقيقة اسم ورد بصفة عابرة في بعض النقوش أو السجلات الثانوية في الوقت الذي تنتظرهم تلال من الوثائق المكتشفة في حاجة إلى البحث والتفسير والتحميص؟

وهكذا ظلت حقيقة دلمون مجهولة على الرغم من معرفة اسمها بالفعل، وعندما ربط العلماء بين دلمون والبحرين كان ذلك في حد ذاته اكتشافاً مثيراً أشبه بفك غوامض لغز مثير في علم الآثار، وعوضهم الكشف الجديد بأثمن مما بذل فيه من جهد، إذ أنهم انتشلوا حضارة ضائعة ظلت حوالي ألفي عام على أقل تقدير واحدة من أروع حضارات العالم القديم.

دلمون في النقوش القديمة:

ولكن قبل أن نصل إلى هذه القصة لابد من إشارة سريعة إلى بعض النقوش البابلية والآشورية التي ورد بها اسم دلمون والتي كانت بمثابة علامات الطريق في التقدم نحو هذا الكشف المثير.

في عام ١٨٦١ اكتشف العلماء في أطلال قصر الملك آشور بانيبال الذي حكم مملكة آشور في القرن السابع قبل الميلاد مكتبة سليمة تضم آلافاً من الألواح الطينية المكتوبة بالخط المسماري. كانت المكتبة تحتوي ثروة ضخمة من المعلومات في مختلف الميادين منها قوائم بأسماء المدن وأقاليم وآلهة، وأجزاء من قصائد وأساطير، وقواميس تحوي كلمات متقابلة بلغات مختلفة

مع شرح لمعناها وطريقة نطقها، وبعضها مكتوب بلغات أجنبية مع ترجمة لها إلى اللغة الآشورية أو بدونها، وبعضها الآخر بلغات أكثر قدماً من اللغة الآشورية كالبابلية القديمة والسومرية الأقدم عهداً، وقدر عدد هذه الألواح بين سليم ومكسور بنحو ٢٥ ألف لوح. وأودعت هذه الألواح جميعاً في المتحف البريطاني بلندن لتكون ذخيرة لأبحاث تستغرق سنوات وسنوات من جانب علماء اللغات الشرقية القديمة.

وكان من أوائل الذين عكفوا على دراسة هذه الألواح وفك رموزها العالم البريطاني راولنسون الذي قام بتصنيفها واختار منها بعض الكتابات تولّى نشرها تباعاً في مجموعات متتالية. وقد ورد اسم دلمون مرتين في المجموعة الثانية من مجموعات راولنسون، ومرتين في المجموعة الثالثة، ومرتين في المجموعة الرابعة.

والواقع أنّ اسم دلمون كان معروفاً قبل ظهور مجموعات راولنسون، فقد عثر عليه قبل ذلك منقوشاً في نص على جدران قصر الملك سرجون الآشوري (القرن السابع ق.م.) الذي اكتشفه العالم لايار في كويونجيك وقد جاء في هذا النص الذي يسجل فتوحات الملك وحملاته العسكرية:

"وأخضعت تحت امرتي بيت ياكين على شاطئ البحر الأحمر منطقة الخليج دلمون" ثمّ يضيف النص أنّ "أوبيري ملك دلمون الذي يعيش دلمون الماء على مسافة ٣٠ ساعة مزدوجة (بيرو) وسط بحر الشمس المشرقة سمع قوتي وبعث لي بهداياه".

ولم تفد الإشارات إلى اسم دلمون التي وردت في مجموعات راولنسون كثيراً في زيادة معلومات العلماء عنها. إذ أن ثلاثاً من هذه الإشارات جاءت

في أشعار أو أغان تربط على نحو غامض بين دلمون وعدد من الآلهة المختلفة. وواحدة تذكر دلمون في عداد المدن الخاضعة لآشور في زمن الملك آشور بانيبال، والإشارة الخامسة جاءت في قائمة تحتوي أسماء بعض الآلهة والأقاليم التي تحت هيمنتها، وفي هذه القائمة سطر يقول "الإله انزاك.. إله دلمون"، أما النص السادس والأخير فهو عبارة عن لوح مسماري يسجل أعمال الملك سرجون الأكدي ويذكر أنّه وصل إلى "البحر الأسفل وهزم ديلمون".

وقد ظن سير راولنسون في أول الأمر أن سرجون الأكدي هذا شخصية أسطورية. ولكن الاكتشافات التي توالت في بلاد ما بين النهرين لم تلبث أن أثبتت أنه شخصية حقيقية، فهو مؤسس الامبراطورية الأكادية بعد أن هزم السومريين وقضى على مدنهم وجعل عاصمته "آكاد" في جنوب العراق عاصمة لامبراطورية شاسعة الأطراف تمتد من شاطئ البحر المتوسط غرباً إلى شواطئ الخليج جنوباً. وقد عاش هذا الفاتح "السامي" الكبير حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م. أي أنه يسبق بستة عشرة قرناً سميه سرجون الآشوري الذي عاش في القرن السابع قبل الميلاد والذي سبق أن رأينا أنه أخضع ديلمون أيضاً وتلقى الهدايا من ملكها أوبيري.

مسألة دلمون:

وعلى أية حال فإن علماء الآشوريات كما سلف القول لم يهتموا كثيراً بتعيين مكان دلمون، فقد كان أمامهم ما يهتمون به أكثر وهم عاكفون على استخلاص تلك الحضارة البابلية العظيمة من الضباب الأثري ومقارنة ما تسفر عنه الاكتشافات الأثرية بما سجل عن أحوال بلاد شنغار وملوك الرافدين في إصحاحات العهد القديم.

ولكن مسألة دلمون لم تلبث أن برزت وفرضت نفسها على رجال الآثار المشغولين بما يتصورون أنّه أهم وأجدى.

ففي عام ١٨٨٠ اكتشف رحالة بريطاني يدعى الكابتن ديوراند حجراً عليه كتابة مسمارية في مسجد قديم بالبحرين. وكان هذا الاكتشاف بمثابة حجر الزاوية في معرفتنا بتاريخ البحرين القديم على نحو يذكرنا بحجر رشيد بالنسبة لمعرفتنا باللغة المصرية القديمة. ونستمع إلى الكابتن ديوراند يقص نبأ عثوره على الحجر، فيقول:

"... وأخيراً أبلغني أحد الناس عن حجر عليه كتابة لا يعرف نوع كتابتها أو قراءتها، فذهبت لرؤية ذلك الحجر المطمور في أرض مدرسة الداوود بالبلاد القديم...وهذا الحجر من البازلت الأسود يشبه في شكله مقدمة السفينة أو لسان الحيوان وهو بطول قدمين وبوصتين، وبالرغم من قداسة المكان الذي يوجد فيه الحجر إلا أنني لم أواجه أية صعوبة في الحصول عليه وذلك بعد أن أخبرت الملاّ بأنّ ذلك الحجر يخصُّ عبدة النار وأنّه بمثابة صنم لا يناسب المكان المطمور بأرضه، ولكي أدعم كلامي ووجهة نظري تبرعت ببضع روبيات لترميم المسجد فما كان من الشيخ (الملاّ) واسمه أحمد إلاّ أن أرسل أحد عبيده ليحفر الأرض وينقل ذلك الحجر إلى منزلي".

ولمّا فكت طلاسم الكتابة المسمارية المنقوشة على الحجر وجد أنها عبارة عن جملة واحدة في ثلاثة أسطر تقول: (Hekal. Rimugas cri Inzak Agiru). وترجمتها: "هذا قصر ريموقاس .. خادم الإله إنزاك .. من قبيلة عقير".

وكانت هذه العبارة بمثابة مفتاح سر دلمون الغامض، فقد كلفت الجمعية الآسيوية الملكية التي نشرت تقرير الكابتن ديوراند عالم الآشوريات

البريطاني سير راولنسون بأن يعلق على التقرير. وكتب راولنسون مقالاً بديعاً في حجم تقرير ديوراند نفسه عن مسألة دلمون ربط فيه لأول مرّة بين اسم دلمون القديمة والبحرين الحديثة وأورد فيه جميع الإشارات التي وردت عن ديلمون ومنطقة الخليج في الكتابات المسمارية ومؤلفات الإغريق والرومان، كما تحدث عن مكانة دلمون في أساطير البابليين وديانتهم.

اعتمد راولنسون على النص الذي سبق أن نشره في إحدى مجموعاته والذي يقول: "الإله انزاك... اله دلمون" للقول بأنّ اكتشاف أثر لكاهن هذا الإله في البحرين يدل على أنّ البحرين هي نفسها دلمون القديمة. وقال راولنسون أنّ انزاك اسم أكادي للإله Nedo الذي يسميه الإغريق Mercury أي عطارد، والمعروف أنّ الإغريق منذ أيام الإسكندر يرون أنّ أهم عبادة كانت في منطقة الخليج العربي هي عبادة فينوس إلهة الحب والجمال وهي ذات علاقة بعطارد أو انزاك باللغة الأكادية البابلية.

ولكن سير راولنسون أقام اعتقاده هذا على الحدس أكثر مما أقامه على الدليل القاطع... وقد أثبتت الاكتشافات التالية صحة حدسه. وأتى بعد ذلك دكتور بيتر كورنوال الذي قام خلال الحرب العالمية الثانية بالتنقيب في عدد من تلال المدافن بالبحرين ثمّ كتب نظرية مفصلة قدّم فيها مزيداً من الأدلة على أنّ البحرين هي دلمون القديمة.

نص سرجون الآشوري:

إذا كانت دلمون هي البحرين كما استنتج راولنسون من الربط بين ما جاء في الحجر الأسود من أنّ البحرين هي مقر انزاك وما جاء في الوثيقة المسمارية

التي ورد بها نص يقول: "الإله انزاك اله دلمون" فهل ينطبق هذا الاستنتاج المنطقي على إشارة سرجون الآشوري إلى ديلمون بأنها تقع على مسافة ٣٠ ساعة مزدوجة (بيرو) وسط بحر الشمس المشرقة؟.هذا السؤال تصدى للإجابة عنه بالإيجاب العالم الأثري الدنماركي جيوفري بيبي الذي قام بالتنقيبات الشهيرة في البحرين ومنطقة الخليج. إذ يعتقد بيبي أنّ نص سرجون الآشوري يحدد بدقة نسبية بالغة موقع ديلمون في الخليج العربي.

إنّ نص سرجون الآشوري يذكر مكانين على وجه التحديد هما بيت ياكين ودلمون، وواضح من النص أنّه كانت هناك حدود مشتركة بين دلمون وبيت ياكين مما يدل على أنّ ملك دلمون (أو بيري) بينما كان يعيش في جزيرة (كالسمكة في الماء) كان يفرض سيطرته أيضاً على جزء من الساحل القاري لبلاد العرب، ولكن بيت ياكين كانت بدورها متصلة بحدود عيلام (التي هي ايران حالياً وعاصمتها سوسة) كما يفهم من النص أيضاً... فأين تقع بيت ياكين على وجه التحديد؟.

نعرف من نص آشوري آخر تركه سنحريب ابن سرجون الآشوري والذي تولّى الملك بعد أبيه عام ٧٠٥ ق.م. أنّه حارب ميروداش – بالادان ملك بيت ياكين الذي كان قد ثار بعد أن أخضعه والده سرجون ويقول النص: "أنّ سنحريب هزم ميروداش – بالادان وأخضع بلاده بيت ياكين وإنّ سكان المدن الساحلية في بيت ياكين ركبوا السفن وعبروا البحر حيث لجئوا إلى عيلام" وهذا لا يترك مجالاً للشك في أنّ بيت ياكين كانت على الجانب الغربي للخليج بدليل أنّ سكانها اضطروا لعبور البحر للوصول إلى عيلام على الجانب الشرقي هرباً من سنحريب، وبذلك تكون الحدود

المشتركة بين بيت ياكين وعيلام التي تحدث عنها سرجون الآشوري تقع في المنطقة الشمالية من رأس الخليج في مكان ما من الجزء الجنوبي لوادي دجلة والفرات، ويكون موقع دلمون القارية (التابعة لدلمون الجزيرة) جنوبي بيت ياكين على امتداد الساحل العربي للخليج، أي منطقة الإحساء شمالاً إلى الكويت بالأسماء المعاصرة.

نأتي بعد ذلك إلى تحديد موقع جزيرة دلمون حسب نص سرجون الآشوري.

إنّ النص يشير إلى أنها تبعد بمقدار ٣٠ ساعة مزدوجة داخل الماء، والساعة المزدوجة (بيرو) وحدة قياس للمسافة بمقدار ساعتي مشي، أي أنها تبعد بمقدار ٦٠ ساعة مشي، وإلى هنا تبرز عقبتان:

- الأولى: أننا لا نعرف من أين يبدأ القياس الذي يؤدي إلى الوصول إلى دلمون بعد ٦٠ ساعة مشي.
- الثانية: أننا إذا اعتبرنا أنّ الساعة المزدوجة تقاس بالمشي على الأقدام فإنّ دلمون تكون أبعد كثيراً إلى الشمال عن موقع البحرين الفعلي.

غير أنّ إمعان النظر قليلاً يحلُّ العقبتين... فالأكثر احتمالاً أن يبدأ القياس من (ساجلات) على حدود عيلام حيث يبدو محتملاً أنّ أوبيري ملك ديلمون قدّم هداياه إلى سرجون في هذا المكان، وهو يقع في رأس الخليج أو منطقة شط العرب حالياً حيث تلتقي حدود عيلام وحدود بيت ياكين.

أمّا العقبة الثانية فتزول أيضاً إذا اعتبرنا أنّ البيرو أو الساعة المزدوجة المشار إليها في النص تقاس بالإبحار وليس بالمشي على الأقدام، فعندئذ تبدو

المسافة المذكورة معقولة جداً، فإذا كان القارب القديم يبحر مسافة ٥ أميال في الساعة الواحدة أي عشرة أميال في الساعة المزدوجة (البيرو) فإنّه يقطع بعد ٣٠ ساعة مزدوجة ٣٠٠ ميل وهي نفس المسافة التي تبعدها البحرين فعلاً عن رأس الخليج.

وعلى هذا – كما يقول جيوفري بيبي– يكون تخمين راولنسون صحيحاً إلاّ إذا تخلينا عن الشاهد الجغرافي الأثري الوحيد الذي لدينا عن موقع دلمون.

وبعد زمن ديوراند وراولنسون اكتشف اسم دلمون في كثير من الوثائق المسمارية الأخرى المتعلقة بشتّى الأغراض الدينية والتجارية والسياسية، وأقدم وثيقة تذكر اسم دلمون تمّ اكتشافها حتّى الآن هي لوح أور – نانيش ملك لجش الذي عاش حوالي عام ٢٥٢٠ ق.م. وفيه يقول: " أن سفن دلمون القادمة من بلاد أجنبية أحضرت لي الخشب كهدية". أما أحدث وثيقة مسمارية تذكر اسم دلمون فهي وثيقة إدارية من العام الحادي عشر من حكم نابونيدوس ملك بابل الذي عاش عام ٥٤٤ ق.م. وجاء فيها ذكر حاكم دلمون.

وبذلك تكون دلمون قد استمرت معروفة لمعاصريها في الزمن القديم ألفي عام (من ٢٥٢٠ إلى ٥٤٤ ق.م.) ولاشكّ أنها كانت معروفة قبل وبعد ذلك وقد تكشف الوثائق في المستقبل ما يزيد من المساحة الزمنية لمعرفتنا بها.

أسطورة الفردوس: لم تكن دلمون مجرد مملكة صغيرة إلى الجنوب من بابل، ولم تكن مجرد محطة بحرية تجارية في الطريق من الهند إلى بلاد الرافدين ولا تقتصر أهميتها على مجرد معرفتنا بحضارة مفقودة أخرى أو مكان أثري آخر كما هو الحال مع ماجان وميلوخا وعيلام وبيت ياكين وغيرها من نقاط

الحضارة المتناثرة حول بلاد الرافدين. وإنّما تكمن أهمية دلمون على وجه التحديد في أنّها تحتل مكاناً فريداً في الميثولوجيا السومرية والبابلية باعتبارها مكاناً مقدساً له مواصفات الجنة أو الفردوس.

وتحدثنا أسطورة سومرية شهيرة عن دلمون كأرض طاهرة نظيفة مشرقة، لا موت فيها ولا مرض ولا عدوان، على نحو يفيد وجود فكرة سومرية عن جنة مقدسة في هذا المكان تصفها الأسطورة في أبياتها الافتتاحية كما يلي:

أرض يلمون مطهرة... أرض دلمون نقية
أرض دلمون نظيفة... أرض دلمون مشرقة
في دلمون لا ينعق الغراب
ولا تصيح الحدأة
ولا يقتل الأسد
ولا يفترس الذئب الحمل
لا يوجد فيها كلب يقتل جدياً
أو خنزير يسطو على غلة
لا أحد يقول عيني تؤلمني
ولا أحد يقول رأسي تصدعني
فيها لا تقول المرأة العجوز: أنا عجوز
ولا يقول الشيخ: أنا طاعن في العمر
فيها الغادة لا تستحم (أي لا تتسخ)
والماء المتلألئ لا يراق
من يعبر النهر (الموت؟) لا تندو عنه.. (صيحة؟)

ولا يمشي إليه الكهنة النائحون
والمغنى لا ينطق بالبائيات
ولا يقف إلى جانب سور المدينة (الجبانة؟) ويرفع عقيرته بالرثاء...

هذه الأسطورة وردت في نص سومري اكتشف في نيبور عبارة عن لوح طيني كبير يضم ٢٧٨ سطراً من الكتابة المسمارية في ستة أعمدة وهو محفوظ حالياً في متحف جامعة بنسلفانيا الأمريكية، وقد نشر النص لأول مرّة في عام ١٩١٥ ولكن ترجمته حينئذ كانت غامضة وغير مفهومة إلى حد كبير. وفي عام ١٩٤٥ ظهرت ترجمته الدقيقة الواضحة على يد البروفيسور كريمر الثقة العالمي في الحضارة السومرية وأمين قسم الشرق الأدنى بمتحف جامعة بنسلفانيا.

وكان كريمر نفسه هو أول من أطلق على هذه الأسطورة في كتابه "نصوص الشرق الأدنى القديم) أسطورة الفردوس، كما أنّه أسمى اللوح المكتوبة عليه الأسطورة "لوح امرمار" نسبة إلى السيدة امركار التي حملته من العراق إلى أمريكا.

ولحسن الحظ فإنّ لوح امركار هذا الذي يحوي "أسطورة الفردوس" من أحسن الألواح السومرية حفظاً وسلامة، ليست به فراغات أو انقطاعات أو غموض مما أتاح للعلماء معلومات متصلة قيمة عن صسمات الفردوس لدى السومريين التي ربما تكون قد نفذت إلى التصور العبراني للفردوس.

تجري أحداث الأسطورة في ديلمون التي توصف بأنّها "بلاد ومدينة" والتي رأينا وصفاً لها فيما سبق، أما أشخاصها الرئيسيون فهم (انكي) إله الماء و(نينخورساك) ربة الأرض وعدة آلهة أخرى من آلهة النباتات.

وتمضي أحداث الأسطورة بعد الوصف الافتتاحي لجنة ديلمون فتقول أن الشيء الوحيد الذي كان ينقص ديلمون هو الماء العذب، ولذلك طلبت الربة نينخورساك (الأرض) من الإله انكي (اله الماء العذب) أن يوفر المياه العذبة التي تنقص هذه الجنة الأرضية، وهو ما فعله انكي بسعادة، ثمّ يتزوج انكي من نينخورساك وينجبان الآلهة نينسان أو نينمو (إلهة النباتات) ومما له دلالة أنّ الأسطورة تذكر أنّ فترة حمل نينخورساك لنينمو كانت تسعة أيام، أي أنّ اليوم يقابل شهراً بالنسبة للحمل البشري، ووضعت نينخورساك حملها بدون ألم... إذ لا ينبغي أن ننسى أنّ هذه الأحداث تدور في الجنة، ولا ألم في الجنة.

إلى هنا يبدو منطق الأسطورة مفهوماً... التزاوج بين الأرض والماء العذب ينتج النبات، فنحن إذن إزاء أسطورة تفسيرية أي أسطورة تفسر أصل الأشياء لا أسطورة طقوسية أي تستخدم للتلاوة في المراسم الدينية، غير أنّ الأسطورة التي نحن بصددها لا تلبث أن تدخل في مجالات لا يحيط بها إدراكنا الحديث، فتقول أنّ انكي واقع ابنته نينسان فولدت الربة نينكورا وهذه بدورها يوقعها انكي فتلد الربة أوتو التي توصف أيضاً بأنها من آلهة النباتات، وعندئذ تحذر الربة الأم نينخورساك حفيدتها أوتو من انكي وتنصحها كيف تتصرف لتدفع عن نفسها غائلته، ولكن انكي وقد شاهد أوتو على حافة الغدير فتاة يانعة ناضجة يحن إلى مضاجعتها ويتقرب إليها، فتطلب أوتو -ربما نتيجة لنصيحة نينخورساك- أن يأتيها انكي بهدية من الخيار والتفاح والعنب (مما يدل على أن عادة هدية العرس كانت معروفة منذ أقدم العصور) ويحضر انكي الهدية المطلوبة إلى كوخ أوتو وتستقبله هذه

بابتهاج، ونتيجة لاتحادهما تولد ثماني مولودات جديدات، ولكن قبل أن تتمكن نينخورساك من إعطاء هذه المولودات أسماءها وخصائصها يبعث انكي رسوله إسيمود لإحضارها له حيث يأكلها جميعاً واحدة وراء الأخرى.

هذه التفاصيل يغمض تفسيرها كما هو واضح، ولكن ربما كانت تشير إلى تفسير بعض الظواهر النباتية نتيجة لاتحاد الماء بالنباتات المختلفة، فتنشأ مثلاً الطحالب ومواد الصباغة... إلخ.

وعلى أية حال تمضي الأسطورة فتقول أنّ نينخورساك تغضب غضباً شديداً من انكي وتصب عليه لعنات رهيبة وتنصرف عنه، كما تستاء الآلهة الأخرى أيضاً من أفعاله، ونتيجة لذلك يسقط انكي مريضاً مصاباً في ثمانية أجزاء مختلفة من جسمه.

ولنا أن نتصور كيف تتدهور الأشياء نتيجة للخصام بين انكي ونينخورساك، أي نتيجة لانحسار الماء العذب عن الأرض الخصبة، فلا بدّ أن تكون النباتات قد ذبلت ووحوش جنة ديلمون وطيورها قد تضررت، إنّ شيئاً غير مقدس (الخصام والغضب) قد حدث في هذه الأرض المقدسة، ولكن الوضع لا يستمر على ذلك طويلاً، إذ يتصدى ثعلب الجنة للمصالحة بينهما، ونتيجة لدهاء الثعلب تعود نينخورساك وتقرر معالجة انكي بأن تخلق ثماني آلهات تتولى كل منها شفاء جزء من أجزاء انكي المريض. وهكذا تخرج ثماني آلهات جدد كان آخرها الإله انشج المقابل السومري للإله انزاك اله ديلمون الذي عُثر على اسمه مكتوباً على الحجر الأسود الذي اكتشفه الكابتن ديوراند في البحرين.

ويشير الباحثون إلى وجود علاقة لغوية بين أسماء كل من هذه الآلهة الثماني

وبين أسماء الأعضاء المصابة في جسد انكي وتبرز منها بصفة خاصة إلهة تدعى نينتي تتولى علاج ضلع انكي، إذ إنّ كلمة "نن" بالسومرية معناها سيدة، وكلمة "تي" تعني ضلعاً، فيكون اسم هذه الربة "سيدة الضلع" ومن العجيب أيضاً في اللغة السومرية أنّ كلمة "تي" تعني أيضاً في اللغة السومرية (الحياة) أي أنّ اسم هذه الربة يمكن أيضاً أن يكون "سيدة الحياة"... أو "حواء".

وهنا نجد تشابهاً قوياً ملفتاً للنظر بين الأسطورة السومرية وقصة التوراة عن خلق حواء من ضلع آدم. إذ يقول سفر التكوين: "فأوقع الرب الإله سباتاً على آدم فنام فأخذ واحداً من أضلاعه وملأ مكانها لحماً وبنى الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم".

والسطور الختامية في القصيدة السومرية ممحوة بعض الشيء ولكن يبدو أنها توحي بأنّ اليلهة الثماني اعتبرت بنات انكي وأبنائه وقامت نينخورساك بتحديد مصائرها، ومن المهم أن نلاحظ أنّ هذه الأسطورة الغريبة لا مقابل لها في أساطير الشرق الأدنى القديم إلا فيما يتعلق بفكرة وجود عصر ذهبي في الماضي السحيق وهي فكرة الانتشار في كل أساطير البشرية.

تأثر العهد القديم بفكرة الجنة الديلمونية:

إنّ هذه الأسطورة السومرية التي تدور أحداثها في ديلمون تعد أول أقدم نص بشري يتحدث عن فكرة وجود أرض مقدسة وارفة الظلال، جارية الأنهار، تمت فيها عملية خلق على نحو ما، وهي أرض مبرأة من كل سوء، لا يعرف فيها المرض أو الموت، ولا تفترس الحيوانات بعضها بعضاً. هذه السمات قوية الإيحاء بفكرة الجنة التي ورد ذكرها في سفر التكوين من

العهد القديم مما جعل بعض الباحثين يتجهون إلى افتراض أنّ كاتب سفر التكوين قد تأثّر بفكرة الجنة الديلمونية. وبالطبع فإنّ هذا التأثير -كما يقولون- لم يكن بالضرورة نتيجة نقل مباشر، أي بترجمة الأسطورة الديلمونية إلى اللغة العبرانية القديمة، وإنما يمكن القول بأنّه وجدها في تراث شعبه فأخذها واستفاد بها ونسج قصة عن معتقداته حول الجنة.

فإذا أضفنا إلى ذلك إشارة الأسطورة السومرية إلى خلق امرأة في هذه الأرض تتولى علاج ضلع رجل لأمكن القول أنّ التشابه بين الحكايتين لم يكن محض صدفة خاصة إذا كان اسم هذه المرأة واحداً في الحالتين، فهو مشتق من مادة الحياة، فالمرأة تدعى سيدة الحياة في القصة السومرية وحواء في سفر التكوين.

والواقع أنّه ليس وصف الجنة وعلاقة حواء بضلع الرجل هما الأمران المتشابهان الوحيدان بين سمات الجنة في سفر التكوين وتلك الأساطير السومرية الأدم عهداً بألف عام على الأقل وإنما هناك عناصر كثيرة متشابهة بينهما، فمثلاً هناك النص في التراثين على أهمية اكتساب المعرفة، والتحدث عن سر الولادة والخلق، وسر الحياة والموت، وسبب الألم والمرض والشقاء، وخلق الإنسان الأول من عنصرين ترابي والهي كما نجد ذكراً في الحالتين لرموز معينة مثل الشجرة المقدسة وألواح القدر، ودهاء الحية، ونعرف من أسطورة أدابا (آدم) السومرية وملحمة جلجامش مدى اهتمامها بالبحث عن الخلود، وكيف أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الحصول عليه، ثمّ فقداه نتيجة للضعف البشري، تماماً كما حدث لآدم في الجنة، بالرغم من اختلاف الوقائع المحددة في التراثين.

ولعله ليس من قبيل الصدفة أن يحدد سفر التكوين موقع الجنة في مكان ما من بلاد الرافدين أو بالقرب منها، وأن يذكر من بين أنهارها دجلة (حدقل) والفرات، فقد جاء في سفر التكوين: ١٢:١٤.

"ولقد أثبت السيد الرب جنة في ناحية الشرق من عدن ووضع فيها الإنسان بعد ما خلقه، ومن الأرض أخرج السيد الرب كل شجرة تسر النظر وتكون صالحة للغذاء... ونهراً يخرج من عدن يروي الجنة ومن ثمّ يتجزأ في أربعة رؤوس فاسم الأول منها بيسون واسم النهر الثاني جيحون واسم النهر الثالث حدقل وهو الذي يجري نحو شرق آشور، والنهر الرابع هو الفرات".

ويقول الدكتور فاضل عبد الواحد علي المتخصص في حضارات ما بين النهرين أنّ كلمة عدن ربما جاءت من الكلمة السومرية Adinu ومعناها السهل أو الأرض السهلة وبالإضافة إلى هذا المدلول العام للكلمة فقد ظهر من النصوص السومرية التي انحدرت إلينا من فجر عصر السلالات الثالث (في حدود ٢٤٥٠ ق.م.) أنّ كلمة عدن كانت تطلق بالتحديد على المناطق السهلة الواقعة جنوبي مدينة أوما (خوجة الحالية) غربي مدينة لكش، وهي المنطقة التي كانت سبباً في نزاع طويل بين هاتين المدينتين أوما ولكش. ثمّ نجد التوراة تفترض ضمنياً أنّ جنة عدن كانت تقع في جنوب وادي الرافدين أي في سومر.

وعلى ذلك يمكن القول بأنّ العبرانيين قد أخذوا اسم عدن ومكان وجودها في بلاد الرافدين عن الحضارة السومرية وربطوها بتصور الجنة الديلمونية دون أن يدركوا أنّ السومريين كانوا يتصورون وجود الجنة في جزيرة ديلمون بالتحديد، ومع ذلك فإنّ كلمة الفردوس التي تطلق أحياناً على الجنة يمكن أن تشير إلى موقع ديلمون بالتحديد.

إذ يقول العلامة جواد علي (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام جـ١ ص ٥٦٣) هناك نص بابلي يرجع إلى سنة ٣١٧ ق.م. وردت فيه عبارة "أرض رعيت برديسو" وتقابل هذه الكلمة كلمة Pildash أو Pardes بالعبرانية وفردوس بالعربية وتقع هذه الأرض في القسم الشرقي من جزيرة العرب بين ماجان (عُمان الحالية) وبيت نبسانو (التي هي جزيرة ديلمون) وقد حملت هذه التسوية بعض العلماء على التفكير في أنّ ما ورد عن جنة عدن في التوراة إنما أريد به هذه المنطقة التي تقع في القسم الشرقي من جزيرة العرب وعلى سواحل الخليج.

ويوجد في المتحف البريطاني خاتم سومري يرجع تاريخه إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد اشتهر منذ اكتشافه باسم "خاتم الاغراء" Seal of Temptation إذ إنه ينقل بصورة وافية جو الفردوس الذي ورد في التوراة فعناصر تصميمه تتألف من اله وشجرة وامرأة وحية جنباً إلى جنب، والشجرة محملة بالثمار، والحية تقف على ذنبها خلف المرأة وكأنها تهمس في أذنها. وقد اختلفت الآراء في هذا الخاتم فقال بعض المتحمسين من العلماء أنّه يمثل إشارة واضحة إلى قصة الإغواء التي تعرض لها آدم في الجنة، وقال آخرون أنّه لا ينبغي أن نحمّل الأثر أكثر مما يحتمل وإنّ التشابه بين محتوياته وعناصر قصة الإغواء الدينية ليس أكثر من مصادفة، ولكن ما يهم على أيّة حال هو أنّ هذا الخاتم يمثل مفهوم العراقي القديم للعصر الذهبي السحيق حيث كان يجتمع الآلهة والبشر تحت ظلال الأشجار وتشاركهم سعادتهم الطيور والوحوش دون عداء أو فزع، وهو نفس ما تمثله صورة ديلمون في أسطورة "انكي ونينخورساك" التي وردت في لوح امركار الذي أشرنا إليه فيما قبل،

فهنا نجد أنّ الأسد لا يقتل، والذئب لا يفترس الحمل، والكلب لا يعقر، والخنزير لا يسطو على الغلة.

ونجد لهذه الصورة أيضاً انعكاساً في سفر أشعياء بالتوراة حيث نقرأ عن حالة السلم والطمأنينة بين الإنسان والحيوان ما يلي:

"فيسكن الذئب مع الخروف، ويربض النمر مع الجدي، والعجل والشبل والمسمّن معاً، وصبي صغير يسوقها، والبقروالدابة ترعيان، تربض أولادهما معاً، والأسد كالبقر يأكل تيناً، ويلعب الرضيع على درب الصل، ويمد الفطيم يده على حجر الافعوان...". (أشعياء ١:٦-١٠)

الناجي من الطوفان يحيا في أرض الخلود:

هذه النظرة إلى ديلمون باعتبارها الجنة أو الفردوس الأرضي جعلت سكان بلاد الرافدين القدماء يعدونها أيضاً "أرض الخلود"، ولذا كان من الطبيعي أن تجعلها الآلهة المكان الذي يقيم فيه الرجل الذي نجا من الطوفان بعد أن منحته الآلهة حق الخلود.

ولدينا نصان لأسطورة الطوفان أحدهما سومري وهو الأقدم بالطبع، والثاني بابلي آشوري مأخوذ عنه مع تغيير أسماء الأبطال والآلهة، والمعروف أنّ الحضارة البابلية اليشورية ورثت الكثير من ثقافة السومريين في اللغة والكتابة والأساطير والأدب والدين... إلخ.

وفي أسطورة الطوفان السومرية نقرأ:

تجمعت كل العواصف البالغة القوة وهاجمت كعاصفة واحدة...

وفي وقت واحد غطّى الفيضان مراكز العبادات

ولمدة سبعة أيام وسبع ليال

ظلّ الطوفان يجتاح كلّ الأرض

وأخذ القارب الكبير تتقاذفه العواصف فوق الأمواج العظيمة

وانبلج أوتو (إله الشمس) وألقى ضوءه على السماء والأرض

وفتح زيوسودرا نافذة القارب العظيم

ونثر البطل أوتو أشعته داخل السفينة الكبيرة

وتقدم زيوسودرا الملك

وركع أمام أوتو

وذبح ثوراً وغنماً

وبعد انقطاع في اللوح المسماري الذي يحوي الأسطورة يمضي النص فيصف مصير زيزسزدرا قائلاً:

تقدّم زيوسودرا الملك

فركع أمام آنو وانليل

وبارك آنو وانليل زيوسودرا

وأعطياه حياة تشبه حياة الآلهة

وهباه أنفاساً خادة كأنفاس إله

وعندئذ، زيوسودرا الملك

الذي حفظ أسماء النباتات وبذرة البشرية

جعلته الآلهة يعيش

في أرض ديلمون .. أرض العبور

المكان الذي تشرق منه الشمس.

ففي هذا النص السومري من أسطورة الطوفان تذكر الأسطورة صراحة أرض ديلمون كمكان يعيش فيه زيوسودرا ملك سيبار الناجي من الطوفان، إذ لما كان زيوسودرا قد منح حياة خالدة جزاء لأنّه "حفظ أسماء النباتات وبذرة البشرية" لذا كان من الطبيعي أن يحيا في أرض الخلود لأنّ الفكرة المسبقة لدى السومريين عن ديلمون أنّها الجنة.

ولكن النص البابلي من أسطورة الطوفان، وهو الأحدث عهداً من النص السومري، لا يذكر ديلمون بالاسم كمكان يعيش فيه الناجي من الطوفان وهو أوتنابيشتيم الذي يعادل زيوسودرا في الأسطورة السومرية. ومن غير الواضح ما إذا كان عدم ذكر ديلمون في هذا المقام يعود إلى انقطاع في النص – إذ ان اللوح غير واضح بالفعل في هذا المكان- أو لأنّ البابليين لم يكونوا ينظرون إلى ديلمون كأرض جنة وخلود كما كان يفعل أسلافهم السومريون، خاصة أنّ هؤلاء – أي السومريين – كانوا ينفردون بأسطورة انكي ونينخورساك التي لا مقابل لها في الميثيولوجيا البابلية.

ومع ذلك فإنّ النص البابلي أيضاً يشير إشارات قوية إلى إمكان أن تكون ديلمون هي المكان الذي التقى فيه جلجاميش مع أوتنابيشتيم الناجي من الطوفان، إذ في نهاية القصة عندما تعلن الآلهة رضاها عن أوتنابيشتيم وزوجته يباركهما كبير الآلهة انليل ويمنحهما الخلود كآلهة، ويجعلهما يعيشان "هناك بعيداً عند فم الأنهار" وإذا لاحظنا أنّ ديلمون تقع على الامتداد البحري لفم نهري دجلة والفرات (وغيرهما من أنهار الهضبة العيلامية) أمكننا المطابقة بين مكاني إقامة بطل الطوفان في الأسطورتين.

ولما كان النص البابلي هو الأوفى من حيث تفصيلات القصة فلا بدّ من

استعراضه بشيء من الإسهاب في مقام البحث عن مركز ديلمون في الأساطير المسمارية.

ملحمة جلجاميش:

إنّ قصة الطوفان البابلية هي جزء من ملحمة جلجاميش الشهيرة وقد عُثر على هذه الملحمة في ١٢ لوحاً وجدت مطمورة في أطلال مكتبة آشور بانيبال في نينوى. وفي عام ١٨٧٢ حلت رموز أحد هذه الألواح، وهو اللوح رقم ١١، فوجد أنّه يحتوي على قصة طوفان عظيم تعرضت له البشرية بأسرارها ونجا منه فرد واحد وعائلته وما أخذه معه من نباتات وحيوانات وأدّى هذا الاكتشاف إلى إثارة اهتمام بالغ في العالم وفي الدوائر الدينية والأكاديمية على وجه الخصوص نظر للتشابه الكبير بين هذه الأسطورة وقصة الطوفان التي وردت في الكتب المقدسة.

ولحسن الحظ فإنّ اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش كان أحسن ألواح الملحمة الاثني عشر حفظاً مما أعطانا تفاصيل كثيرة عن قصة الطوفان كما حكاها أوتنابيشتيم والطريق الذي سلكه جلجامش كي يلتقي به. وتصور الأسطورة جلجاميش ملك اريك (الوركاء) على أنّه حفيد أوتنابيشتيم الناجي من الطوفان، وبعد أن تقص الأسطورة حياة جلجاميش ومغامراته وتصور مدى انزعاجه لوفاة صديقه انكيدو وادراكه أنّ الموت لا محالة طائلة هو أيضاً، تحكي لنا القصة أنّ جلجاميش قرر الانطلاق للبحث عن جده اوتنابيشتيم الرجل الوحيد الذي كافأته الآلهة بالخلود جزاء تقواه وإنقاذ بذرة البشرية من الطوفان، وذلك على أمل أن يعرف منه سرّ الخلود.

وفي بداية رحلة البحث عن أوتنابيشتيم يصل جلجامش إلى سفح

سلسلة جبلية هي جبال ماشو. وكان يحرس مدخل هذه السلسلة من الجبال "رجل – عقرب" وزوجته. ويحذره الرجل العقرب بأنّ أي إنسان حي لم يستطع أن يجتاز هذه الجبال ويقاوم أخطارها، ولكن أمام إصرار جلجاميش على مغامرته يسمح له الحارس بالمرور، ويتبع جلجاميش في رحلته الطريق الذي تسلكه الشمس، وبعد أخطار مخيفة يصل إلى شاطئ بحر الموت، وهناك يجد حارساً آخر في شكل امرأة صاحبة حانة جعة تدعى الربة سيدوري، وتحاول بدورها أن تثنيه عن محاولة عبور بحر الموت، وتخبره أنّ أحداً غير الإله شمس لا يمكنه عبور ذلك النهر، وتنصحه بأن يتمتع بالحياة طالما أنّه لا يزال على قيدها، فالموت مقدّر من الآلهة على البشر ولا يستطيع أحد أن ينجو من هذا المصير، وتقول له ألاّ يحاول البحث عن المستحيل وأن يقنع بأن يملأ معدته بأشهى الطعام وأن يبهج نفسه ليلاً ونهاراً:

عليك أن تجعل من كل يوم حفلاً للابتهاج
عليك أن ترقص وتلعب ليلاً ونهاراً
فلترتدي أجل الثياب وأنظفها
فلتغتسل وتستحم في الماء
ولتبحث عن امرأة تحبها وتحبك
فتمنحها حمايتك وتجعلها تبتهج تحت جناحك
فهذا هو الممكن لابناء البشر

ولكن البطل جلجاميش يرفض أن يأخذ بنصيحة سيدوري حاملة جرة النبيذ، فيتركها ويمضي في طريقه، ولدى الشاطئ يلتقي مع أورشانبي الملاح الذي كان يقود سفينة أوتنابيشتيم ويأمره أن يعبر به مياه الموت، ويحاول

أورشانبي بدوره أن ينصحه ويثنيه، ثمّ أمام إصراره يخبره عن الطريقة التي يمكن أن ينجو بها من المياه القاتلة، وهي أن يصنع طوفاً من خشب الأشجار ينقله إلى وجهته في المرحلة الأخيرة من رحلته تلك المحفوفة بالمخاطر والهلاك.

وما أن يلتقي جلجاميش مع أوتنابيشتيم حتى يطلب منه فوراً أن يبلغه بسر الخلود، وماذا فعل كي ينال هذا الامتياز الفريد، فيشرع الشيخ الطاعن في السن أوتنابيشتيم يقص على مسامع جلجاميش قصة الطوفان، وكيف أنّ اليلهة قررت تدمير البشرية لأنها تصدر ضوضاء مزعجة. ولكن انكي اله المياه الجوفية (الذي رأينا صلته بدلمون) يحذر أوتنابيشتيم بما أضمرته اليلهة ويبلغه بأن يبني فلكاً بأوصاف ومقاسات معينة وأن يصطحب معه أسرته وحيواناته، وعلى حين غرّة بدأ الطوفان بالفعل بمياه تسقط من السماء وتنبثق من الأرض، ولمدة ستة أيام وليال هبت العاصفة، وعلا الموج، وفي اليوم السابع أطلق أوتنا بيشتيم حمامة وعصفوراً تباعاً ولكنهما عادا إلى الفلك فعلم أنهما لم يعثرا على ارض صلبة، وبعد ذلك أطلق غراباً فلم يعد، فعلم أنّ الماء قد غاص، ورسى الفلك على قمة جبل نيسير (في شمال كردستان) عندئذ فتح أوتنابيشتيم نوافذ الفلك وقدّم الأضحيات لليلهة، وتدخل انكي لدى انليل كبير الآلهة طالباً منه ألاّ يعاقب كل البشر بخطايا البعض منهم، فلا تنذر وازرة وزر أخرى، فوافق انليل على ذلك وتعهد به، ثمّ دخل انليل الفلك ولمس أوتنابيشتيم وزوجته في جبهتها، وقال:

منذ الآن سيكون أوتنابيشتيم خالداً

منذ الآن هو وزوجته سيكونان مثل الآلهة

ويعيشان هناك بعيداً عند فم الأنهار

ولا يذكر النص البابلي كما أسلفنا مكان التقاء جلجاميش وأوتنابيشتيم بالتحديد، وهو المكان الذي اتخذ مقراً للرجل الخالد، واكتفى بأن أشار إليه بعبارة "هناك بعيداً عند فم الأنهار". ولكن كان واضحاً لدى العلماء أن هذا النص البابلي لابد أن يكون كغيره من النصوص البابلية والآشورية التي عثر عليها في مكتبة آشور بانيبال منقولاً عن نص أقدم عهداً لم يكتشف بعد. ومرت أربعون سنة أخرى قبل أن يكتشف هذا النص الأصلي، وعندئذ اتضحت العلاقة الوثيقة بين قصة الطوفان ودلمون.

ففيما بين عامي ١٨٩٩ و١٩٠٠ كانت بعثة أثرية من جامعة بنسلفانيا الأمريكية تجري تنقيبات في نيبور، وهي من أشهر المراكز الحضارية القديمة بأسفل بلاد ما بين النهرين وكانت في زمن السومريين وعهد سرجون الاكادي فيما بعد مركزاً لعبادة الإله انليل كبير الآلهة أو الأول بين الآلهة وهو بالتحديد الإله الذي دبّر الطوفان ومنح الخلود لأوتنابيشتيم في النهاية، وكشفت التنقيبات عن أول زاقورة مدرجة يعثر عليها في بلاد ما بين النهرين، والمعروف أنّه كان لكل مدينة سومرية زاقورة واحدة فحسب، وعثر بأعلى الزاقورة على معبد صغير، وفي أسفلها على أطلال المعبد الرئيسي لانليل، وبين هذه الأطلال عثر هيلبريخت رئيس البعثة وكان حجة في الكتابة السومرية على أرشيف المعبد ويحوي حوالي ٣٥ ألف لوح سومري وهي كمية تفوق ما عثر عليه من موجودات في مكتبة الملك اليشوري آشور بانيبال من القرن السابع قبل الميلاد.

وكانت معظم هذه الألواح مكتوبة بالقلم السومري الذي سبق الكتابة البابلية السامية في بلاد ما بين النهرين، ويرجع إلى هذا الاكتشاف الفضل في

تحسين معرفة العلماء باللغة السومرية. وقد ظلّ العلماء عاكفين على حلّ رموز هذا الكنز من الكتابات المسمارية سنين طويلة، وفي عام ١٩١٤ فكت طلاسم أحد الألواح فغدا به يحتوي على جزء من نص قصة الطوفان التي سبقت معرفتها من اللوح البابلي.

ولكن اللوح كان مطموساً في معظمه للأسف، فلم يكن سليماً منه سوى ثلثه الأسفل وثمّة ثغرات في هذا الثلث أيضاً، غير أنّ ما تبقى من النص كان كافياً كي يوضح أننا بصدد نفس القصة التي قصها أوتنابيشتيم على جلجاميش فيما عدا أنّ الراوي في النص السومري يدعى زيوسودرا، ولحسن الحظ فإنّ الجزء الباقي الواضح من النص يحمل معلومات جديدة في غاية الأهمية، إذ بينما نجد أنّ النص الآشوري البابلي لا يحدد مكان إقامة أوتنابشتيم حيث التقى به جلجاميش نجد أنّ النص السومري يقول:

وعندئذ زيوسودرا الملك
الذي حفظ أسماء النباتات وبذرة البشرية
جعلته الآلهة يعيش
في أرض دلمون
أرض العبور
المكان الذي تشرق منه الشمس

والعبارتان الأخيرتان اللتان تصفان دلمون بأنّها "أرض العبور" و"المكان الذي تشرق منه الشمس" تستحقان وقفة تأمل، فإنّ تعبير "أرض العبور" غير واضح وهي ترجمة حرفية عن الأصل السومري "كور- بالا" وكلمة "كور" معناها في السومرية "أرض" أو "بلاد"، أمّا كلمة "بالا" فهو اسم

فعل مشتق من فعل "يعبر" ويستخدم بصفة خاصة للدلالة على عبور الأنهار، وهذا يذكرنا على الفور بالتعبير الذي ورد في النص البابلي عن مكان إقامة أوتنابيشتيم "هناك بعيداً عند فم الأنهار".

أمّا تعبير "المكان الذي تشرق منه الشمس" فهو لا يقل غموضاً، وكثيراً ما استخدم -كما يقول جيوفري بيبي- كحجة لنفي أنّ ديلمون هي البحرين، إذ أنّ البحرين تقع إلى الجنوب من نيبور بينما "المكان الذي تشرق من الشمس" لا بدّ بالضرورة أن يكون في اتجاه الشرق. غير أنّ هذه الحجة كما يقول بيبي لا تصمد كثيراً إذا عرفنا أنّ البابليين ومن قبلهم السومريين كانوا يطلقون على الخليج العربي ثلاثة مسميات هي "البحر الأسفل" و"البحر المر" و"بحر الشمس المشرقة"، ومن الطبيعي تماماً بالنسبة لهم أن يسموا أي مكان فيه بالمكان الذي تشرق منه الشمس.

وباكتشاف هذا النص اكتسبت ديلمون أهمية بالغة لم تكن لها بمقتفى النص الآشوري البابلي إذ أنها أصبحت المكان الذي يعيش فيه خالداً الرجل الذي نجا من الطوفان، وإليها لا بدّ أن يكون قد سعى جلجاميش للقاء هذا الرجل.

ولكن لماذا جعلت الآلهة زيوسودرا بالسومرية، أو سرخاكيس بالأكاديّة، أو أوتنابيشتيم بالبابلية واليشورية يعيش في دلمون؟ إنّ الفلك لم يرس فيها بالتأكيد بل رسا حسب الأسطورة في الجبال الواقعة إلى الشمال من بلاد ما بين النهرين فما الذي أتى به جنوباً إلى ديلمون؟

الرد على ذلك واضح وسهل تماماً... إنّ الناجي من الطوفان الممنوح حياة خالدة لا بدّ أن يعيش في أرض الخلود التي لا يعرف فيها موت ولا مرض، أي ديلمون حسب ما عرفنا من أسطورة انكي ونينخورساك.

عثرت البعثة الدنماركية الأثرية برئاسة جيوفري بيبي عند أقصى الطرف الجنوبي لجزيرة المنامة – كبرى جزر البحرين– على آثار قرية صغيرة تتميز بوجود أكوام كبيرة من المحار الفارغ فيها، ثبت أنها جميعاً من محارات اللؤلؤ. وتفصل المنطقة التي تقع فيها. هذه القرية عن الصحراء الجنوبية للمنامة سبخة كبيرة يتعذر السير فيها مما يشير إلى أنّ المنطقة التي عثر فيها على محار اللؤلؤ الفارغ كانت في الأصل جزيرة منفصلة مجاورة للشاطئ، ثمّ حدث الاتصال بينهما لأسباب طبيعية.

ويرى جيوفري بيبي في كتابه "البحث عن ديلمون" أنّ هذا المكان لا بدّ أنّه كان في الأصل مستعمرة للغواصين القدامى، وأنّهم ينشرون فيه صيدهم من المحار حتى يجف في الشمس ويموت الحيوان بداخله ويفتح المحار فيجمعونه ويبحثون بداخله عن حبات اللؤلؤ الثمينة.

وهذه طريقة قديمة في صيد اللؤلؤ وهي معروفة في أماكن مختلفة من العالم ولكنها ليست متبعة في الخليج الحديث، إذ أنّ الغواصين العرب في العصور الحديثة كانوا لا يبرحون ظهر مراكبهم، وبعد أن يحصلوا على اللؤلؤ يلقون بالمحارات الفارغة في البحر مرّة أخرى.

ولذا فإنّ هذه المستعمرة لصيادي اللؤلؤ لا بدّ أن تكون أقدّم عهداً من الأسلوب المتبع حديثاً، مما يدل على أنّ صيد اللؤلؤ في البحرين كان حرفة قديمة جداً. وقد تبين لبيبي بالفعل أنّ هذه المستعمرة يعود زمنها إلى الألف الثالث قبل الميلاد نظراً لتماثل الفخار الذي عُثر عليه فيها مع الفخار الذي عُثر عليه في معبد باربار، وهكذا يمكن القول باطمئنان أنّ البحث عن اللؤلؤ كان معروفاً في البحرين خلال عصور اسومريين والبابليين السحيقة.

والمعروف أنّه وردت في النصوص المسمارية التي عُثر عليها في أور إشارات إلى استيراد "عين السمكة" من دلمون، وهو تعبير يفسره العلماء بأنّه يعني اللؤلؤ.

وهذا يذكرنا مرة أخرى بملحمة جلجاميش...

ففي النصّ البابلي لملحمة جلجاميش نرى أنّه بعد أن يصل البطل جلجاميش في بحثه عن الخلود إلى المكان الذي يعيش فيه أوتنابيشتيم– والذي تبين لنا أنّه ديلمون من النص السومري الناقص– وبعد أن يقص عليه أوتنابيشتيم قصة الطوفان يبلغه بأنّ ليس في إمكانه تحقيق الخلود، ولكن باستطاعته أن يجد تعويضاً جزئياً عن بغيته في "زهرة الشباب"، فهذه الزهرة يمكنها أن تجدد الشباب ولكن المشكلة تكمن في صعوبة الحصول عليها. وفي اللوح الثاني عشر والأخير من الملحمة يسر أوتنابيشتيم لجلجاميش بسر زهرة الخلود هذه، فيبلغه أنها موجودة في قاع البحر أو ربما على وجه التحديد في المياه العذبة "الابسو" الذي تحت سطح الماء المالح، وكان على جلجاميش كي يصل إليها أن يربط أحجاراً في قدميه ويغوص إلى قاع البحر حيث يقطف الزهرة السحرية. ثمّ يتخلص من الأحجار المربوطة بقدميه فيطفو مرة أخرى إلى السطح.

هذا النص يثير اهتماماً خاصاً لأنّ الطريقة التي اتبعها جلجاميش للحصول على هذه الزهرة السحرية هي نفس الطريقة التي كان يستخدمها غواصو اللؤلؤ المعاصرون أي بربط الأثقال في أقدامهم، وعلى ذلك فالشكّ يكاد يكون معدوماً في أن يكون المقصود بزهرة الخلود إنما هو اللؤلؤ.

ومن المثير أن نلاحظ أنّ ثمة تقليداً كان شائعاً في مصر القديمة يعتبر

اللؤلؤ إكسيراً للشباب والحياة الدائمة، إذ يقال أنّ الملكة البطلمية كليوباترا كانت تشرب اللؤلؤ مذاباً في النبيذ لتحافظ على ما تتمتع به من شباب وسحر وجاذبية.

وهكذا يبدو أنّ جلجاميش قد كوفئ في النهاية بما يعوضه عن مغامراته الشاقة ورحلاته المهولة. ففي دلمون أرض الخلود عثر على الزهرة السحرية التي تمد العمر وتجدد الشباب، وإذا كان الخلود نفسه من حق الآلهة ووقفاً عليهم دون غيرهم من بني البشر فإنّ تجديد الشباب يبدو على الأقل أقصى ما يمكن لانسان أن يطمح إليه. ولكن قصة جلجاميش لا تنتهي للأسف بهذه النهاية المنطقية السعيدة. فنرى أنّ جلجاميش بعد أن يفعل كل ما أوصاه به أوتنابيشتيم ويحصل على الزهرة يتردد في أكلها ويقرر أن يستبقيها ويأخذها معه إلى وطنه كي يقتسمها مع كبار أهل مدينته أورك (الوركاء) حتّى يتمتعوا جميعاً بالحياة الشابة المتجددة. ولكنه إذ يغفو إلى جانب غدير ليحصل على شيء من الاحة تخرج الحية من ثغرة في الماء وتأكل زهرة الخلود وبذلك تحرم الإنسان من فرصة الشباب الدائم وتحصل هي عليه، ألسنا نرى الحية تتخلص من جلدها القديم كلّها هرمت وتستبدل به جلداً جديداً وشباباً دائماً؟

وهذا يذكرنا مرة أخرى بالعهد القديم حين حرمت الحية الجنس البشري من فرصة الخلود والشباب الدائم في جنة عدن. وكانت سبباً في طرد الجنس البشري إلى حيث الشقاء والفناء.

وهنا تنتهي جلجاميش، والعبرة فيها واضحة: إذا كان الإنسان لا يستطيع حتى أن يقاوم مجرد النوم فكيف به يأم أن يقاوم الموت؟

دلمون... وأصل السومريين: تلخيصاً لما سبق نقول أنّ سكان بلاد ما بين

النهرين القدماء كانوا ينظرون إلى دلمون التي بث أنها البحرين الحديثة نظرة مقدسة. والسومريون بالذات وهم أقدم صناع الحضارة في جنوب الرافدين كانوا يعدون دلمون الجنة أو الفردوس المفقود حيث يوجد النقاء والطهارة والنظافة وحيث السلام الأبدي يعم المخلوقات جميعاً من بشر ووحوش وطيور، وحيث لا مرض ولا موت ولا تقدم في العمر، فلا حاجة بالغادة أن تستحم لأنها نظيفة دائماً وكان ما حولها نظيف وطاهر. ولا تراق المياه المتلألئة على الأرض في الاستخدامات اليومية المعهودة لأنّ هذه المياه مقدسة تستخدم في الأغراض المقدسة وحدها (كما ثبت من حفائر معبد باربار) وهذه المياه العذبة أوجدها انكي اله المياه الجوفية بطلب من نينخورساك ربة الأرض كي تتحول ديلمون إلى جنة وأرقة الظلال تكسوها النباتات، أو بكلمة واحدة كان السومريون يعتقدون أنّ الآلهة باركت ديلمون ووهبتها المياه العذبة والنباتات والصحة والشباب الخالد، ويبدو أنّ هذا التصور كان له تأثير قوي على فكرة الجنة أو الفردوس في العهد القديم. ولذا كان من المنطقي عندما أنقذ انكي زيوسودرا من الطوفان، ومنحه الخلود، أن تجعله الآلهة يعيش في المكان الذي لا يعرف الموت، أي في ديلمون، ولا بدّ أن يكون جلجاميش قد سعى إليها في بحثه عن الخلود متجشماً الأهوال والمشاق، ومتخطياً عقبات مستحيلة، وهناك التقى بالرجل الناجي من الطوفان، وسمع منه أسرار الآلهة، وقصة الطوفان العظيم الذي دمّر البشرية، وهناك أيضاً غاص جلجاميش في أعماق مياه ديلمون كي يحصل زهرة تجديد الحياة أو أكسير الشباب الدائم غير أنّ الحية عدوة الجنس البشري منذ الأزل وتحرمه هذه الفرصة الفريدة.

كانت هذه هي نظرة السومريين بالذات إلى دلمون كما تقول أساطيرهم صراحة، ولكن يبدو أنّ هذه النظرة قد اهتزت قليلاً لدى البابليين وغيرهم من الأقوام السامية التي ورثت ثقافة السومريين وحضارتهم ومنازلهم، ودليلنا على ذلك أنّ الأسطورة السومرية عن انكي ونينخورساك التي تذكر ديلمون كأرض مطهرة نقية لا وجود لها أو لما يماثلها في الأدب الأسطوري السامي اللهم فيما عدا تسرب فكرة الجنة مجردة إلى الأدب العبراني وغيره من الآداب السامية دون أن تحدد هذه الآداب الجنة بديلمون كما كان يفعل السومريين.

وهناك دليل آخر على اهتزاز صورة ديلمون كأرض مقدسة في نظر البابليين يتمثل في عدم ذكرها صراحة باعتبارها المكان الذي يقيم فيه أوتنابيشتيم الذي كافأته الآلهة بالخلود لإنقاذ البشرية من الطوفان، فالنص البابلي الذي ورد في ملحمة جلجاميش يكتفي بالقول بأنّ الآلهة كافأت أوتنابيشتيم بالخلود وجعلته يعيش بعيداً هناك عند فم الأنهار ولولا أننا نعلم من شظية سومرية أن جلجاميش سعى إلى ديلمون بالتحديد للقاء زيوسودرا، بطل الطوفان السومري، لظل المكان الذي يقيم فيه نظير أوتنابيشتيم مجهولاً.

ويبدو أنّ تعامل البابليين والآشوريين الكثيف مع ديلمون في مجال التجارة والرحلات البحرية قد قلّل من النظرة المقدسة إلى هذا البلد، فالألفة تقلل من مشاعر التقديس والتكريم بل والاحترام بين البشر، إلا أنّ هذا التعليل غير كاف لتفسير ديلمون لدى السومريين، وقد كان هؤلاء يتعاملون أيضاً مع ديلمون في شؤون التجارة والملاحة وغير ذلك من جالات الحياة كما هو ثابت من النصوص السومرية، فلماذا لم تقلل هذه العلاقات من

نظرتهم التقديسية إلى ديلمون؟ ولماذا اختار السومرون ديلمون بالذات لينظروا إليها هذه النظرة؟

هذا سؤال لا بدّ أن يثور في ختام بحث عن مكانة دلمون في الأساطير السومرية خاصة إذا علمنا أنّ السومريين قوم غرباء أصلاً عن المنطقة. إنهم بكل تأكيد لا ينتمون إلى الأرومة الجنسية السامية الأساسية في منطقة الشرق الأدنى القديم، ولكن تختلف آراء العلماء اختلافاً بيناً في تحديد أصلهم والمكان الذي جاءوا منه، غير أنّهم بكل تأكيد أيضاً كانوا قوماً متحضرين منذ أول مجيئهم، فقد أحدثوا قفزة حضارية نوعية بالنسبة لنمط الحضارة الذي كان سائداً في منطقة الرافدين قبل حضورهم، ذلك النمط الذي تمثله حضارات ما قبل التاريخ المعروفة في تلك المنطقة.

إنّ هناك أدلة لها قيمتها تفيد أنّ السومريين جاءوا إلى منطقة ما بين النهرين حوالي عام ٣٣٠٠ ق.م. قادمين من دلمون فإنّ أساطيرهم تذكر أنّ جدهم الأكبر جاء من دلمون وأنهم نزحوا من هناك بعد طوفان، ومن غير الواضح ما إذا كانوا يعتبرون أنّ ديلمون هي موطنهم الأصلي أم أنها كانت محطة على الطريق استقروا فيها مؤقتاً قبل نزوحهم الجديد إلى الشمال. ومن الثابت أنّ البحرين كانت بالفعل محطة مهمة تنزل فيها الأقوام المهاجرة إلى الشمال، فالكلدانيون جاءوا إلى بابل من المنطقة العربية الشرقية على ساحل الخليج في أواخر الألف الثانية قبل الميلاد مروراً بديلمون، ويقول هيردوت أنّ الفينيقيين فعلوا نفس الشيء وان مقابر البحرين الشهيرة فينيقية، فليس ما يمنع منطقياً أن يكون السومريون قبل هؤلاء جميعاً قد استقروا في ديلمون حيث عرفوا السعة والطمأنينة ورغد العيش قبل أن تستجد ظروف أخرى دفعتهم إلى الهجرة إلى بلاد الرافدين.

وهذا الاحتمال يفسر دون شك تلك النظرة المقدسة التي ظلوا ينظرونها إلى دلمون، فالإنسان يحن إلى موطنه الأول وينظر إلى طفولته كعصر ذهبي ولّى ولن يعود وكذلك الأقوام والجماعات في عقلها الباطن الجماعي تنظر إلى عهدها الأول مثوى عظام الآباء والأجداد نظرة يملأها التقديس والإكبار، وتحلم بأيام هذا الموطن باعتبارها عصراً ذهبياً يختلف عن الواقع المعاش.

ومما له دلالة خاصة في هذا الصدد أن بعض الأساطير السومرية تذكر أنّ انكي هو صانع الإنسان وأنّه فرض أن تكون ديلمون هي دار الندوة أو مجمع الآلهة لجميع البلاد السومرية. ومن المحتمل أنّ انكي كان في الأصل إلهاً محلياً في ديلمون قبل أن ينتقل إلى سومر، وبعض العلماء يتصورون أنّ أسطورة انكي ونينخورساك التي تفسر أصل النباتات نشأت أصلاً في دلمون ثمّ انتقلت غلى بلاد ما بين النهرين، وهناك شواهد كثيرة على أنّ السومريين والبابليين (تأثراً بهم من بعدهم) كانوا يعتقدون أنّه في فجر الزمن كانت الآلهة تقضي معظم أيامها في دلمون، كلّ ذلك من شأنه أن يعزز الاعتقاد بأن يكون السومريون قد توقفوا في البحرين وأقاموا بها زمناً وهم في طريقهم من موطنهم الأصلي المجهول إلى وادي ارافدين، وربما كان هذا الموطن بالتحديد هو إقليم وادي نهر الأندوس حيث ازدهرت حضارة هارابا وموهانجو دارو، وعلى أي الأحوال كانت الفترة التي قضوها في دلمون كافية لأن تظل حية في ذاكرتهم بمياهها العذبة، وأشجارها الوارقة، كذكرى جنة قديمة أو فردوس مفقود.

٢

حضارة بابل القديمة

هناك الكثير من الحضارات التي ما زالت أسمائها مطبوعة في قلوبنا على الرغم من اندثارها قبل آلاف من السنين ...فكل حضارة تعبر عن عادات وتقاليد شعوب مضت وما كانوا يفعلونه من انجازات التي اعتبرت في أزمانهم عجائب لن ينساها أحد حتى نحن أيضا وفي عصرنا الحالي ولو تطور العالم وأصبحت هذه العجائب سوى حطاما إلا أنها الركائز الأساسية لهذا التطور الذي توصل إليه الإنسان ولا يستطيع أحد نكرانه فهي المادة الرخام التي صنعت المجد للإنسان الحديث ومن خلالها واصل طريقه لتحقيق ما كان مستحيل في يوم من الأيام ...لذلك أحببت أن أتطرق إلى أحدى هذه الحضارات التي شهدتها العالم على مر العصور من ازدهار وتألق لم يسبق له مثيل خلال فترة مهرجاننا الذي سيستهل علينا بهذا الوقت من كل عام حاملا معطاء من أكاليل زهورٍ وأوسمة ما يسعد خلدت أعضائه المميزين ليكون صيف مميزا لجميع من حوله وبذلك سأكشف لكم عن إحدى زهور الحضارات التي فتحت من خلال ثمارها صفحة من صفحات التاريخ المشرق وهي حضارة بابل القديمة.

ورث البابليون حضارة السومريين بعد أن اندمجت سومر ببابل حوالي العام ٢٢٠٠ قبل الميلاد. وقد بالغوا في العناية بالزراعة مركزين على إنشاء

القنوات لري أراضيهم، وبالتجارة حتى لقد جعلوا من بابل سوق الشرق الأساسية. أما السلع الأساسية التي شكلت قوام تجارتهم فكانت القمح والشعير والسمسم والتمور والمنسوجات. ولعل أبرز ما برع فيه البابليون، في الحقل العلمي، الرياضيات وعلم الفلك. ولقد استخدموا معلوماتهم الرياضية في مسح الأراضي واستخدموا خبرتهم الفلكية في مراقبة مواقع النجوم والكواكب. وكذلك عني البابليون بالتربية والتعليم فكانوا يلقنون ناشئتهم القراءة والكتابة ومبادئ العلوم. وقد عثر المنقبون في مدينة بابل على آثار مدرسة ترقى إلى عهد حمورابي. كذلك ألف البابليون كتبا لتعليم الطب ومعالجة الأمراض،وحققوا بعض الإنجازات في حقل الموسيقى. ولكن أعظم ما قدمه البابليون للعالم هو قوانين حمورابي وملحمة جلجامش.

بدأ هذا العصر عندما هاجمت قبائل أمورية بدوية الأراضي الممتدة بين الفرات ودجلة في الوقت الذي كانت المنازعات مستمرة بين المدن البارزة فلم تكن هناك قوة كافية لردع تسربها إلى بلاد الرافدين فاحتلت هذه القبائل مدن عديدة ومن هذه المدن مدينة بابل والتي كانت في ذلك الوقت مجرد محطة للقوافل التجارية. وبذلك كانت أول ومضات الحضارة البابلية على يد الأسرة الأمورية ممن يعود إليها الفضل في إعمار بابل وبدء ازدهار عصر جديد وكان أول من أسس أسرة حاكمة للشعب الجبلي الأموري حاكم بابلي ذي شأن وهو الملك سمو ابوم في القرن التاسع عشر ق.م ...وقد سميت إمبراطوريتهم بالبابلية نسبة إلى عاصمتهم بابل أي (باب الألة) وأمتاز ملوك بابل عن ملوك المدن الأخرى على أنهم كانوا يطلقون على كل سنة من سنين حكمهم أسما يحمل ذكر أهم الأحداث التي حدثت في تلك السنة.

بابل المدينة أو بابليون Babylon،Babylion هي مدينة عراقية كانت عاصمة البابليين أيام حكم حمورابي حيث كان البابليون يحكمون أقاليم مابين النهرين وحكمت سلالة البابليين الأولى تحت حكم حمورابي (١٧٩٢-١٧٥٠) قبل الميلاد في معظم مقاطعات ما بين النهرين، وأصبحت بابل العاصمة التي تقع علي نهر الفرات..وكانت عاصمة للدولة الآشورية التي اشتهرت بحضارتها وبلغ عدد ملوك سلالة بابل والتي عرفت (بالسلالةالآمورية – العمورية) ١١ ملكا حكموا ثلاثة قرون(١٨٩٤ ق.م. -١٥٩٤ ق. م). في هذه الفترة بلغت حضارة العراق أوج عظمتها وازدهارها وانتشرت فيها اللغة البابلية بالمنطقة كلها حيث أرتقت العلوم والمعارف والفنون وتوسعت التجارة لدرجة لا مثيل له في تاريخ المنطقة. وكانت الإدارة مركزية والبلاد تحكم بقانون موحد سنه الملك حمورابي لجميع شعوبها.وقد دمرها الحيثيون عام ١٥٩٥ ق.م. حكمها الكاشانيون عام ١٥١٧ ق.م. وظلت متنعشة مابين عامي ٦٢٦و٥٣٩ ق.م. حيث قامت الإمبراطورية البابلية وكانت تضم من البحر الأبيض المتوسط وحتى الخليج الفارسي (العربي). استولي عليها قورش الفارسي سنة ٥٣٩ ق.م. وكانت مبانيها من الطوب الأحمر. واشتهرت بالبنايات البرجية (الزيجورات). وكان بها معبد إيزاجيلا للإله الأكبر مردوخ (مردوك).والآن أصبحت أطلالا. عثر بها علي باب عشتار وشارع مزين بنقوش الثيران والتنين والأسود الملونة فوق القرميد الأزرق

وحدائق بابل المعلقة إحدى عجائب الدنيا السبع، التي بناها نبوخذ نصر للملكة أمييهيا التي كانت تتشوق لحدائق وطنها ميديا، بنيت تقريبا ٦٠٠ ق م في بابل بالعراق الحالي، وهناك شك في وجود الحدائق فعليا،

والحدائق ليست معلقه فعليا. وتعرف كذلك بحدائق سميراميس المعلقة. الحديقة من جمالها وروعتها الخلابة كانت تدخل المرح والسرور إلى قلب الإنسان عند النظر إليها. زرعت فيها جميع أنواع الأشجار، الخضروات والفواكه والزهور وتظل مثمرة طول العام وذلك بسبب تواجد الأشجار الصيفية والشتوية ووزعت فيها التماثيل بأحجامها المختلفة في جميع أنواع الحدائق...

بابل Babylonia تعني (بوابة الإله) كان الفرس يطلقون عليها بابروش Babirush دولة بلاد مابين النهرين القديمة. كانت تعرف قديما ببلاد سومر وبلاد سومر أكد وكانت تقع بين نهري دجلة والفرات جنوب بغداد بالعراق. فظهرت الحضارة البابلية ما بين القرنين ١٨ق.م. و٦ ق.م. وكنت تقوم علي الزراعة وليس الصناعة. وكانت بابل:Babylon. دولة أسسها حمورابي الدولة البابلية عام ١٧٦٣ق.م. وهزم آشور (مادة) عام ١٧٦٠ ق.م، وأصدر قانونه (قانون حمورابي) وفي عام ١٦٠٠ق.م. استولي ملك الحيثيين مارسيليس علي بابل واستولي الآشوريون عليها عام ١٢٤٠ ق.م. بمعاونة العلاميين. وظهر بنوخدنصر كملك لبابل (١١٢٤٥ق.م.- ١١٠٤ ق.م.) ودخلها الكلدان عام ٧٢١ ق.م.(ثم دمر الآشوريون مدينة بابل عام ٦٨٩ ق.م. إلا أن البابليين قاموا بثورة ضد حكامهم الآشوريين عام ٦٥٢ ق.م. وقاموا بغزو آشور عام ٦١٢ ق.م. واستولي نبوخدنصر الثاني علي أورشليم عام ٥٧٨ ق.م. وسبي اليهود عام ٥٨٦ ق.م. إلى بابل. وهزم الفينيقيين عام ٥٨٥ ق.م. وبني حدائق بابل المعلقة. ثم استولي الإمبراطور الفارسي قورش علي بابل عام ٥٠٠ ق.م. وضمها لإمبراطوريته.

قد أصدر حمورابي عددا هائلا من الشرائع التي سميت باسمه وبلغت مئتين وأثنين وخمسين مادة نقشت على مسلة من حجر الدويريت الأسود وفي أعلاها نحت يمثل الملك البابلي يتلقى السلطة الملكية والشريعة من الإله الشمس(شمش) وأستغفر الله وهي مسلة حمورابي الشهيرة الموجودة الآن بمتحف اللوفر في باريس. ومن أحد مواده المادة ٢٢٩ التي تقول (اذا بنى مهندسا بيتا لأحد الأشخاص، ولم يكن بناؤه متينا فأنهار البيت، وسبب قتل من فيه يعاقب المهندس بالموت) وهناك عقوبات رادعة اعتمدت مبدأ (العين بالعين والسن وبالسن) منها إذا كسر إنسان لرجل شريف سنا أو فقأ له عينه أو أي شيء آخر حل به نفس الأذى الذي سببه له، وعلى الرغم من أن شريعة حمورابي كانت قاسية في العقوبات ولكنها بقيت مدة خمسة عشر قرنا كاملة محتفظة بجوهرها.

المجتمع البابلي في عهد حمورابي كان مكون من ثلاث طبقات:

١- الطبقة الراقية (الأرستقراطية) والتي عرفت باسم لاميلو الذين هم سيادة المجتمع.

٢- الطبقة العامة (الموشكينو) أي المساكين هم الأفراد الفقراء من الأحرار الذين عملوا بجميع المهن ولكنهم افتقروا لكل الحقوق التي كانت تمتع بها الطبقة الأرستقراطية.

٣- طبقة الرقيق (واردوم) وهم الذين ولدو بالرق وأسرى الحرب فكانت لهم بعض الحقوق فقد كان بإمكانهم التملك وإدارة بعض الأعمال الخاصة بهم واقتراض المال وحتى أنهم كانوا يستطيعون شراء أنفسهم وكأن

بأماكن النساء الحرائر التملك ولهن حقوق شرعية أخرى وقد عرف أن الآباء عادة هم من يختارون الأزواج لبناتهم. والمضحك بالأمر أن طبقة الرقيق لها حقوق أكثر مما لدى الطبقة العامة يا لسخرية القدر.

وأخيراً سقطت هذه الإمبراطورية بعد ضعف حكم الحكام الذين فقدوا معظم نفوذ المنطقة بعد موت حمورابي مباشرة ولكنها ظلت قوة سياسية وثقافية مهمة ولكن حكامها لم يحاولوا توسيع سلطانها بعد موت حمورابي وبسبب المشاكل الداخلية للدولة أدى إلى احتلالها من قبل الأشوريين.

وبالنسبة للإمبراطورية البابلية الأولى، فقد بدأت عندما هاجمت قبائل أمورية بدوية الأراضي الممتدة بين الفرات ودجلة في الوقت الذي كانت المنازعات مستمرة بين المدن البارزة فلم تكن هناك قوة كافية لردع تسربها إلى بلاد الرافدين فاحتلت هذه القبائل مدن عديدة ومن هذه المدن مدينة بابل والتي كانت في ذلك الوقت مجرد محطة للقوافل التجارية. وبذلك كانت أول ومضات الحضارة البابلية على يد الأسرة المأمورية ممن يعود إليها الفضل في إعمار بابل وبدء ازدهار عصر جديد وكان أول من أسس أسرة حاكمة للشعب الجبلي الأموري حاكم بابلي ذي شأن وهو الملك سمو ابوم في القرن التاسع عشر ق.م ...وقد سميت إمبراطوريتهم بالبابلية نسبة إلى عاصمتهم بابل أي ((باب الأله) وأمتاز ملوك بابل عن ملوك المدن الأخرى على أنهم كانوا يطلقون على كل سنة من سنين حكمهم أسماً يحمل ذكر أهم الأحداث التي حدثت في تلك السنة.

وتسلم حمورابي الحكم بعد وفاة والده (سين مبلط) الذي عمل جاهداً على تحقيق هدف والده والذي لم يستطع والده تحقيقه بسبب قوة أشور التي

كانت بقيادة شمشي أدد وهو توحيد البلاد كلها بقيادته ...فلذلك خلف أبيه بهذه المهمة فعمل هدنة مع شمشي أدد الذي تميز بقوته والتزم الصمت في بادئ الأمر ولكن بعد مماته أنهار توازن القائم في بلاد الرافدين ودخلت البلاد في صراع جديد بين المدن البارزة بعد أن أصبحت بابل مدينة محصنة مزدهرة وبلغت جداً من القوة وكان التنافس دائراً بين أربعة حكام أقوياء للحصول على زعامة بلاد الرافدين وهم ماري غرباً، اشنونة شرقاً ولارسا جنوباً وأخيراً بابل في الوسط وعلى الرغم من موقع بابل الضعيف إلا أن حمورابي أستطاع أن يهزم خصومه واحداً تلو الآخر وربح الجولة الأخيرة عن طريق زرع الفتن بينهم مستعيناً بالواحد منهم ليقهر الأخر فقد كان معروفاً بصبره وعناده وحذره الذي يشتاحه بشيء من الخبث فصاحبه اليوم قد يكون ضحيته التالية غداً وهكذا استقرت بابل على العرش دولة كبيرة جديدة بعد خمسة وعشرين سنة من العمل المثابر.

عرف عصر حمورابي بالعصر الذهبي والذي لم يشهد له مثيل في تاريخ بابل الطويل. حيث صار بأماكنها أن تمارس سيادة سياسية لا منازع لها فيها بعد أن امتدت مملكته حتى خابور إلى حوض البليخ وشملت نهر ديالى ووادي دجلة الأعلى. وقد أستحل أسم بابل محل أسم سومر وأكد وبتفوقها الثقافي ومكانتها الدينية التي احتفظت بها طوال ألف عام أضحت بعمرانها لؤلؤة الشرق العربي القديم. وهكذا نجح حمورابي في فرض وحدة الرافدين فبدأ بلارسا فأشنونة ثم ماري وأخيراً أشور ولكنه لم يكتفي بذلك بل عمل على توحيد الوحدة التشريعية القانونية حيث أتصف نظام حكمه بالحكم المطلق الذي يتوخى العدالة في ظل قانون (أنا حمورابي الأمير الأعلى، عابد

الآلهة، لكي أنشر العدالة في العالم، وأقضي على الأشرار الأثمين، وأمنع الأقوياء أن يظلموا الضعفاء، وأنشر النور في الأرض، وأرعى مصالح الخلق) والذي سار على نهجه جميع ملوك بابل تقريبا.

بابل.. حمورابي..والملك النمرود:

تقع مدينة بابل على بعد تسعين كيلو متراً جنوب بغداد. وقد كانت في يوم من الأيام عاصمة المملكة البابلية. ويمكن القول إن بابل هي أشهر الأماكن الأثرية في العراق كلها. وقد برزت مدينة بابل لأول مرة في عهد الملك حامورابي ووصلت إلى ذروة تألقها في ظل حكم الملك نبوخذ نصر الثاني (ستمائة وخمسة قبل الميلاد - ستة وخمسين قبل الميلاد). وتشتهر مدينة بابل بجدرانها العالية الحصينة وفخامة معابدها وقصورها. كما تشتهر بابل بحدائقها المعلقة، إحدى عجائب الدنيا السبع، التي بناها الملك نبوخذ نصر لزوجته أميتاس. ويقال إن أميتاس كانت تقطن منطقة جبلية فأمر الملك ببناء الحدائق المعلقة ليخفف عنها الشعور بالغربة والحنين إلى الوطن. إلا أن بابل قد لحق بها الدمار والخراب حتى أنه لم يتبق من أمجادها السابقة سوى تمثال الأسد الحجري الكبير بنقوشه العظيمة

تقع مدينه بابل الأثريه على ضفاف نهر الفرات القديم "شط الحله" حاليا، وسط أرض خصبة من بلاد الرافدين. ولقد كانت بلاد بابل تسمى في عصر الملك نبو خذ نصر الثاني باسم بلاد أكد، وهي التسمية القومية الصحيحة للمنطقة الجغرافية المحيطة بمدينة بابل.

ولا يعرف المؤرخون التوقيت الحقيقي الذي ظهرت فيه هذه التسمية على المدينة.ومن أشهر ملوكها الملك حمورابي بين عامي ١٧٩٢-١٧٥٠ قبل

الميلاد والذي قام بتشريع قوانينه المشهورة (٢٨٢ ماده قانونية) في السنة ٤٢ التي عرفت بـ "شريعة حورابي " وافتخر بالبقاء بها وحكمها العديد من ملوك العالم القديم وقادته كالإسكندر المقدوني.

و الحقيقة أنه لم تذكر الكتب المقدسة الثلاثة مدينة مثلما ذكرت بابل. ولم تذكر كتب التاريخ أرضاً كما ذكرتها، ولم تذكر نصوص وأدبيات الرحالة والجغرافيين الكلاسيكيين واللاحقين مدينة وأرضاً كما ذكروها. ولم تصل أي مدينة قديمة إلى حينها، ولا يختلف اثنان على أنها كانت عاصمة العالم القديم إبان القرن السابع قبل الميلاد وأنها أعطت البشرية من علوم وفنون وعمارة أكثر من أي مدينة سبقتها أو عاصرتها.

وكانت "بابل" تسمى باللغات الرافدينية القديمة "باب أيلوم" وتعني باللغة العربية الحديثة "بوابة الآلهة"، كما ورد اسمها في العهد القديم والجديد كـ "بابلون"، وفي القرآن الكريم وفي سورة البقرة: "بابل".

وإذا ما أخذنا بنظر الاعتبار النصوص الأكدية التي تُعَزَّى إلى الملك سرجون الأول " ٢٣٧٠ - ٢٣٤٠ ق.م " سنجد أنها تذكر في أحد نصوصها الملكية أن سفناً رست في ميناء عاصمتها "أكد" الواقعة على نهر الفرات قادمة من "دلمون"، و"ماجان"، و"ملوخا". ومن خلال الوصف الجغرافي والتاريخي لمدينة "أكد" لا يستبعد أنها كانت مدينة بابل التي أمست إبان حكم الملك البابلي "حموراي" (١٧٩٢-١٧٥٠) قبل الميلاد عاصمة الإمبراطورية البابلية، وفيها كتبت انضج الشرائع الوضعية، ولو أن الملك حموراي زعم أنها إلهية.

كان الإله الرئيسي لمدينة بابل هو الإله "مردوخ". وقد أقيم لهذا الإله

وعبر العصور أبنية فخمة محاطة بأسوار عالية، وقد اعتبر بعض علماء الآثار أن أبنية "مردوخ" هي في الواقع "المؤسسة السماوية" على الأرض وحسب اعتقاد البابليين. وقد جاء هذا الرأي من خلال سطور الملاحم القديمة التي كانت تنص على أن مدينة بابل هي مركز الكون.

وخلال حكم الملك الذائع الصيت "بنوخذ نصر" (٦٠٥– ٥٦٢) قبل الميلاد، أمست مدينة بابل أكثر المدن شهرة في العالم القديم حيث بني فيها الملك "نبوخذ نصر" عشرات القصور، ومئات المعابد، والمؤسسات المدنية، وأحاطها بسورين عظيمين إلى جانب تشييده للجنائن المعلقة وهذان المعلمان الأخيران اعتبرا قديماً اثنين من عجائب الدنيا السبع لا لضخامتها فحسب بل لأنماط بنائهما أيضاً.

وخلال حكم الملك "بنوخذ نصر" والملوك الذين خلفوه كتبت في مدينة بابل "أسفار ومزامير" العهد القديم على يد أحبار اليهود بدليل أن كثيراً مما في تلك الأسفار له علاقة مباشرة بأساطير بلاد وادي الرافدين القديمة، ولكن وللأسف الشديد نجد أيضاً في بعض من أسفار العهدين القديم والجديد نعوتاً وأوصافاً لا تليق بعطاء مدينة بابل التي عاش بها كتاب العهد القديم.

في عام ٥٣٩ قبل الميلاد أفل نجم بابل من جديد بعد أن غزاها "العيلاميون" الذين نقلوا كثيراً من فنونها المعمارية والفنية إلى عاصمتهم "برسيوليس"، ولم يدم حكم "العلاميين" طويلاً لبابل حيث دخلها القائد المقدوني الإسكندر في عام ٣٣١ قبل الميلاد. وبعد مكوثه فيها قليلاً اتخذها عاصمة لحكمه في الشرق لفترة تقرب من ثماني سنوات حيث وافته المنية فيها عام ٣٢٣ قبل الميلاد.

وهناك من يعتقد من المؤرخين أن الإسكندر توفي في بابل ودفن فيها عشية بداية حملته التي خطط لها طويلاً للجزيرة العربية، وأن خطته تلك تبدأ باحتلال الخليج العربي، وانه استورد جميع متطلبات حملته هذه وقبل مماته بقليل من فينيقيا، وانه جلب صناعاً فينيقيين لصناعة سفنه في مرافئ بابل.

إن حلم الإسكندر لم يتوار بعد أن واراه الثرى بدليل أن قواده حققوا له حلمه عندما غزوا الخليج العربي برمته وامتد نفوذهم إلى جميع سواحل الجزيرة العربية، وبعض من دواخلها وأنشئوا فيها كثيراً من المدن والمستعمرات التجارية والحاميات العسكرية، وظلت مدينة بابل منطلقاً لتلك الحملات لحين اتخاذ "السلوقيين" أحفاد الإسكندر عاصمة جديدة لهم تقع على نهر دجلة أطلقوا عليها "سلوقيا".

بعد ذلك تكالبت الأحداث على بابل لحين هجرها أهلها بعد أن هجرها نهر الفرات حين حول مجراه بعيداً بعيداً عنها – فتحولت وبمرور الزمن إلى أرض خراب إلا أن صيتها بقي يسمع ويقرأ في كثير من الأحيان على أنها كانت ذات يوم مدينة المدن وكان يحسب لها ألف ألف حساب.

ظلت أطلال بابل "ينعب فيها الغراب" لأجيال وأجيال، وظل العلماء والرحالة والكتاب يضربون أخماسا بأسداس علهم يجدون لها أثراً يذكر – لحين عام ١٨٩٩، ففي هذا العام وقبل بدايات القرن العشرين بأشهر قليلة عمل فريق صغير من الألمان في حفر جزء من تل مرتفع يقع على مقربة مما يعرف بمدينة "الحلة" الآن وعلى بعد تسعين كيلومتراً جنوب غرب بغداد.

وبعد توالي التنقيب ظهرت لهم وبدون أي سابق إنذار بوابة عشتار التي كانت تزين شارع الموكب الذي كان يمر به "نبوخذ نصر".

والبوابة هذه كانت مقامة من الأجر المزجج بلون السماء، ومزدانة بأنواع مختلفة من الحيوانات الخرافية الرمزية بهيئة نحت بارز.

نقلت هذه البوابة آجرة، آجرة كما نقلت كنوز بابل الأخرى إلى متحف " برلين " ومنذ ذلك الحين زارها الملايين الملايين من الزوار والباحثين، وهي غريبة عن موطنها الأصلي.

توقفت أعمال الفريق الألماني عام ١٩١٧ نتيجة اندلاع الحرب العالمية الأولى - فأهملت بابل من جديد لحين قيام "مديرية الآثار القديمة العامة" العراقية في خمسينيات القرن الماضي بالكشف عن مزيد من أطلالها ومعالمها التي تعكس أبعاد حضارة بلاد وادي الرافدين بكل الأبعاد.

وبعد غزو الحلفاء للعراق في ٢٠٠٣ تمركزت في مدينة "بابل" كتيبة بولندية عمدت هذه الكتيبة - عن جهل أو عن عمد - على تمزيق هذه المدينة الخالدة حيث قامت بتسخير معالمها وتسوية كثير من مرتفعاتها "تلالها الأثرية".

ولم تكتف بهذا وذاك بل شقت خندقاً طوله ما يقرب من المائة والثمانين متراً استعملت ركامات ذلك الخندق المملوء بالآثار القديمة بملء أكياس استعملتها كخطوط دفاعية حسب ما تدعي.

كان هذا والمنظمات الدولية القيمة على الحفاظ على التراث الإنساني تتباكى على أمور، لا يصل مستوى التدمير فيها إلى "آجرة" عليها نقوش بابلية سحقت تحت عجلات التدمير التي كانت تصول وتجول على أطلال بابل.

وعندما رفعت الأصوات شجبت تلك المنظمات الأعمال بالكلام وليس بالأفعال.

وتعد بابل عاصمة المملكة البابلية لإمبراطوريتين بابليتين. وكان السومريون أقدم سكان بلاد بابل، وبابل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ (البقرة: ١٠٢)، كانت مركزًا دينيًّا وتجاريا لبلاد بابل.

وصارت بابل بعد سقوط سومر قاعدة إمبراطورية بابل، وقد أنشأها حمورابي حوالي ٢١٠٠ق.م، امتدت من الخليج العربي جنوبًا إلي نهر دجلة شمالا. - وقد دام حكم حمورابي ٤٣ عامًا ازدهرت فيها الحضارات البابلية حيث يعد عصره العصر الذهبي للبلاد العراقية.

وتضم بابل "حدائق بابل المعلقة" التي تعد من عجائب الدنيا السبع. وكان يوجد بها ثماني بوابات، وكان أفخم هذه البوابات بوابة "عشتار" الضخمة. كما كان يوجد بها "معبد مردوك" ويوجد داخل الأسوار بساحة المهرجان الديني الكبير،الواقعة خارج المدينة.

وقد اعتمد الاقتصاد البابلي بصورة رئيسية على الزراعة فقد زرعوا الأرض بالقمح والخضراوات والفواكه. - وحفروا القنوات وربوا المواشي، وصنعوا أشياء من الطين والأحجار والعظام والأخشاب والمعادن، وتعلموا تجفيف المستنقعات وصناعة "الآجر" من الطين.

وقد انقسم المجتمع في بلاد بابل،خلال عصورها المختلفة إلى طبقات متعددة، وهي "الطبقة الأرستقراطية"، التي كانت تضم عادة موظفي الحكومة والكهنة وملاك الأراضي الأثرياء وبعض التجار. وكانت هناك "الطبقة

العامة"، وكانت تتألف من الحرفيين والكتبة والمزارعين.

كما كانت هناك "طبقة الرقيق" التي شكلت أدنى طبقات المجتمع البابلي، وكانوا يصنعون أكواخا من القصب والطين.، ويستخدمون الطين المشوي أو المجفف بالشمس لبناء بيوتهم.

وقد بلغ عدد ملوك سلالة بابل والتي عرفت بـ "السلالة الآمورية" أو "العمورية" ١١ملكا حكموا ثلاثة قرون (١٨٩٤ ق.م. -١٥٩٤ ق.م.). في ("الكاشانيون" عام ١٥١٧ ق.م. وظلت منتعشة مابين عامي ٦٢٦و٥٣٩ ق.م، حيث قامت الإمبراطورية البابلية وكانت تمتد من البحر الأبيض المتوسط وحتى الخليج العربي.

ثم استولي عليها قورش الفارسي سنة ٥٣٩ ق.م، وكانت مبانيها من الطوب الأحمر. واشتهرت بالبنايات البرجية "الزيجورات". وكان بها معبد "إيزاجيلا" للإله الأكبر "مردوخ" أو "مردوك".والآن أصبحت أطلالا. وقد عثر بها علي "باب عشتار" وشارع مزين بنقوش الثيران والتنين والأسود الملونة فوق القرميد الأزرق.

حمورابي.. وشريعة حمورابي: حكم حمورابي بابل بين عامي ١٧٩٥ - ١٧٥٠ ق. م وهو من الأموريين، كانت البلاد دويلات منقسمة تتنازع السلطة، فوحدها مكونا إمبراطورية ضمت كل العراق والمدن القريبة من بلاد الشام حتى سواحل البحر المتوسط وبلاد عيلام ومناطق أخرى. وكان حمورابي شخصية عسكرية لها القدرة الإدارية والتنظيمية والعسكرية. ومسلته الشهيرة المنحوتة من حجر الديوريت الأسود والمحفوظة الآن في متحف اللوفر بباريس، تعتبر أقدم وأشمل القوانين في وادي الرافدين بل والعالم. وتحتوي مسلة حمورابي على ٢٨٢ مادة تعالج مختلف شؤون الحياة.

فيها تنظيما لكل مجالات الحياة وعلى جانب كبير من الدقة لواجبات الأفراد وحقوقهم في المجتمع، كل حسب وظيفته ومسؤوليته. بعد وفاة حمورابي تولى الحكم خمسة ملوك أخرهم "سمسو ديتانا" الذي هاجم الحيثيون البلاد في زمنه في عام ١٥٩٤ ق. م واحتلوها، وخربوا العاصمة ونهبوا كنوزها بعدها رجعوا إلى جبال طوروس.

تعتبر شريعة حمورابي أول شريعة مكتوبة في التاريخ البشري وتعود إلى العام ١٧٨٠ قبل الميلاد وتتكون من مجموعة من القوانين. وهناك العديد من الشرائع المشابهة لمثل شريعة حامورابي والتي وصلتنا من لبلاد ما بين الرافدين منها مجموعات القوانين والتشريعات تتضمن مخطوطة أور-نامو، ومخطوطة إشنونا، ومخطوطة لبت-إشتار ملك آيسن إلا أن تشريعات حمورابي هي الأولى في التاريخ التي تعتبر متكاملة وشمولية لكل نواحي الحياة في بابل.

وهي توضح قوانين وتشريعات وعقوبات لمن يخترق القانون. ولقد ركزت على السرقة، والزراعة (أو رعاية الأغنام)، وإتلاف الممتلكات، وحقوق المرأة، وحقوق الأطفال، وحقوق العبيد، والقتل، والموت، والإصابات. وتختلف العقوبات على حسب الطبقة التي ينحدر منها المنتهك لإحدى القوانين والضحية. ولا تقبل هذه القوانين الاعتذار، أو توضيحِ للأخطاء إذا ما وقعت.

على العكس من بقية ملوك تلك الفترة، فلم يزعم حمورابي أنه سليل آلهة أو ذو ذات إلهية، إلا أنه وصف نفسه بخليل الآلهة. وفي الجزء العلوي من العمود ظهر حمورابي أمام عرش إله الشمس شمش.

رُقمت البنود من ١ إلى ٢٨٢ (مع الإشارة إلى أن البند ١٣، والبنود من

٦٦ لـ ٩٩، و١١٠، و١١١ مفقودة) على عمود طوله ٨ أقدام، ٢.٥ متر، والمكون من حجر الديوريت.

ولقد اكتشف هذا العمود عام ١٩٠٩ في سوسا. ويُعرض العمود الآن في متحف اللوفر في باريس، فرنسا. مرسوم على الحجر الملك حمورابي وهو يستمع إلى إله الشمس الجالس على عرشه وهناك كاتب تحت حمورابي يسجل القوانين.

ووضع الحجر في مكان عام وسط مدينة بابل لفتح المجال أمام الجميع لرؤية هذه التشريعات الجديدة كي لا يتم التذرع بجهل القوانين كعذر.

ولقد تمت الإشارة إلى هذه الشريعة كأول مثال لمفهومٍ قانوني يشير إلى أن بعض القوانين ضرورية وأساسية حتى أنها تتخطى قدرة الملوك على تغييرها.

وبنقش هذه القوانين على الحجر فإنها دائمة، وبهذا يحيى المفهوم والذي تم تكريسه في الأنظمة القانونية الحديثة وأعطت المصطلح منقوش على الحجر ماهيته في الأنظمة الحالية.

بحسب التلمود، ولد النبي موسى بعد حمورابي بـ ٤٠٠ سنة وتحتوي شريعة موسى بعض الأجزاء المطابقة لأجزاء معروفة من شريعة حمورابي، وبسبب هذا التطابق زعم بعض العلماء أن العبرانيون استسقوا قوانينهم منها.

بينما نصَّ كتاب وثائق من وقت العهد القديم: "أنه لا أساس لافتراض أن العبرانيين استعاروا بعضاً من قوانين البابليين. ومع اختلاف مجموعتي القوانين في الصياغة، فإنهما مختلفين في الجوهر".

وفي حين حاولت تشريعات حمورابي تنظيم الحياة المدنية داخل المدن ومعاقبة المتسببين بأعمال تودي بالأمن والسلم الأهلي للمدينة.

ومع ذلك لم تخلو تشريعات حمورابي من أحكام بالموت على مرتكبي الجنح والجرائم التي لا تسحق الموت بمفهومنا اليوم ولكنها كانت ضرورية كما يبدو في حينها:

وتجمع الكثير من المصادر التاريخية على أن إبراهيم الخليل عليه السلام خرج من مدينة أور الكلدانية، أي من سهل شنعار من بلاد بابل الجنوبية على أيام حكم حمورابي.

وعليه فإن إبراهيم عليه السلام حاملاً معه شرائع بلاده الأصلية التي بقيت تراثاً لدى أبنائه وأحفاده على التوالي يعملون بها ويتقاضون بموجبها.

ملك بابل النمرود.. وسيدنا إبراهيم عليه السلام:

الملك النمرود، ذلك الملك العظيم الذي له ملك الدنيا كلها، ومع ذلك كان كافرا بالله.. وكما يقول العلماء فقد كان هناك ٤ ملوك ملكوا الدنيا كلها، وهما مؤمنان وكافران.. فأما المؤمنان فهما ذو القرنين وسليمان، واما الكافران فهما النمرود وبختنصر.

النمرود هو النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح عليه السلام.. وكان ملك بابل..وقد استمر ملكه ٤٠٠ سنة، يحكم شعبه بالحديد والنار، وكان يعبد الأصنام ثم جعل نفسه إلها، وطلب من شعبه بان يعبدوه !!

وقد رأي النمرود في المنام يوما، كوكبا ظهر في السماء، فغطي ضوء الشمس، فسأل حكماء قومه، فأخبروه بأن ولدا " سوف يولد هذه السنة

ويقضي علي ملكك "، فأمر بقتل جميع الأولاد الذين يولدون تلك السنة... وفي تلك السنة ولد سيدنا إبراهيم ﷺ، فخافت عليه أمه فخبأته في سرداب.

وكان الله يرعاه فلما كبر أكثر من الآخرين، حتي إذا بلغ عمره سنه واحدة، وكان الناس يحسبون أن عمره ٣سنوات.. وبذلك استطاعت أمه إخراجه من السرداب ولم يتعرض له الملك.

وعندما أصبح سيدنا إبراهيم شابا بدأ بمناقشة أهله وقومه يدعوهم لعبادة الله، وترك عباده النمرود.. وفي أحد الأيام وبينما كان قومه يحتفلون خارج المدينة ذهب سيدنا إبراهيم لأصنامهم وكسرها كلها، إلا كبيرهم، وعندما رجعوا من حفلتهم، وجدوا أصنامهم مهدمة فسألوه، فقال لهم: إنه كبيرهم الذي كسر الأصنام الأخرى لأنه يغار منهم !!

فأخذوه للنمرود فبدأ سيدنا إبراهيم يناقشه بقدرة الله وقال له: ربي الذي يحي ويميت وبين له دلائله علي ذلك، وعندما فشل النمرود في اقناع سيدنا إبراهيم أمر جنوده بعمل برجا عاليا، ليصل إلي رب إبراهيم ليراه، ثم أمر بعمل نار كبيرة، وألقي فيها سيدنا إبراهيم، ولكن الله جعلها باردة علي سيدنا إبراهيم، فلم تؤذيه.. ثم دعا سيدنا إبراهيم النمرود مرة أخري ليؤمن بالله ولكنه تكبر وعصي وكفر بالله... فأرسل الله عليه وعلي جنوده جيشا من البعوض، هجم علي الجنود فمص دمهم، وأكل لحمهم وشحمهم وأبقي عظامهم فقط..فهلكوا جميعا.

وأرسل الله بعوضة فدخلت في أنف النمرود، ثم انتقلت لرأسه فألمته، فكان يطلب من الناس أن يضربوه بالنعال علي رأسه ليخف ألم رأسه...

وعذبه الله ٤٠٠ سنة، مثل عدد سنوات حكمه حتى مات من كثرة الضرب بالنعال.. فمات ذليلا بعد أن كان عزيزا، أعطاه الله الخير والنعم الكثيره، وبدلا من الشكر كفر به !!

وقد وردت قصة سيدنا إبراهيم والنمرود في القرآن الكريم، في سورة البقرة – الآية ٢٥٨.. قال الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾

ويقدم القرآن الكريم مناظرة إبراهيم الخليل مع من أراد أن ينازع الله العظيم الجليل في العظمة ورداء الكبرياء فادعى الربوبية، وهوَ أحدُ العبيد الضعفاء

يذكر تعالى مناظرة خليله مع هذا الملك الجبار المتمرد الذي ادعى لنفسه الربوبية، فأبطل الخليل عليه دليله، وبين كثرة جهله، وقلة عقله، وألجمه الحجة، وأوضح له طريق المحجة.

قال المفسرون وغيرهم من علماء النسب والأخبار، وهذا الملك هو ملك بابل، واسمه النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح قال مجاهد. وقال غيره: نمرود بن فالح بن عابر بن صالح بن أرفخشذ بن سام بن نوح.

قال مجاهد وغيره: وكان أحد ملوك الدنيا، فإنه قد ملك الدنيا فيما ذكروا أربعة: مؤمنان وكافران. فالمؤمنان: ذو القرنين وسليمان. والكافران: النمرود وبختنصّر.

وذكروا أن نمرود هذا استمر في ملكه أربعمائة سنة، وكان طغا وبغا، وتجبر وعتا، وآثر الحياة الدنيا.

ولما دعاه إبراهيم الخليل إلى عبادة الله وحده لا شريك له حمله الجهل والضلال وطول الآمال على إنكار الصانع، فحاجّ إبراهيم الخليل في ذلك وادعى لنفسه الربوبية. فلما قال الخليل: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾

قال قتادة والسُّدِّي ومُحَمْد بن إسحاق: يعني أنه إذا آتى بالرجلين قد تحتم قتلهما، فإذا أمر بقتل أحدهما، وعفا عن الآخر، فكأنه قد أحيا هذا وأمات الآخر.

وهذا ليس بمعارضة للخليل، بل هو كلام خارجي عن مقام المناظرة، ليس بمنع ولا بمعارضة، بل هو تشغيب محض، وهو انقطاع في الحقيقة، فإن الخليل استدل على وجود الصانع بحدوث هذه المشاهدات من إحياء الحيوانات وموتها، (هذا دليل) على وحود فاعل. (و) ذلك، الذي لا بد من استنادها إلى وجوده ضرورة عدم قيامها بنفسها، ولا بد من فاعل لهذه الحوادث المشاهدة من خلقها وتسخيرها وتسيير هذه الكواكب والرياح والسحاب والمطر وخلق هذه الحيوانات التي توجد مشاهدة، ثم إماتتها ولهذا قَالَ إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ﴾

فقول هذا الملك الجاهل ﴿أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُ﴾ إن عنى أنه الفاعل لهذه المشاهدات فقد كابر وعاند، وإن عنى ما ذكره قتادة والسُّدِّي ومُحَمْد بن إسحاق فلم يقل شيئاً يتعلق بكلام الخليل إذ لم يمنع مقدمة ولا عارض الدليل.

ولما كان انقطاع مناظرة هذا الملك قد تخفى على كثير من الناس ممن حضره وغيرهم، ذكر دليلاً آخر بين وجود الصانع وبطلان ما ادّعاه النمرود وانقطاعه جهرة: قَالَ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ﴾ أي هذه الشمس مسخرة كل يوم تطلع من المشرق كما سخرها خالقها ومسيرها وقاهرها. وهو الذي لا إله إلا هو خالق كل شيء. فإن كنت كما زعمت من أنك الذي تحي وتميت فأت بهذه الشمس من المغرب فإنّ الذي يحي ويميت هو الذي يفعل ما يشاء ولا يمانع ولا يغالب بل قد قهر كل شيء، ودان له كل شيء، فإن كنت كما تزعم فافعل هذا، فإن لم تفعله فلست كما زعمت، وأنت تعلم وكل أحد، أنك لا تقدر على شيء من هذا بل أنت أعجز وأقل من أن تخلق بعوضة أو تنتصر منها.

فبين ضلاله وجهله وكذبه فيما ادعاه، وبطلان ما سلكه وتبجح به عند جهلة قومه، ولم يبق له كلام يجيب الخليل به بل انقطع وسكت. ولهذا قال: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥٨﴾.

وقد ذكر السُّدِّي: أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم وبين النمرود، يوم خرجه من النار، ولم يكن اجتمع به يومئذ، فكانت بينهما هذه المناظرة.

وقد روى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم: أن النمرود كان عنده طعام، وكان الناس يفدون إليه للميرة، فوفد إبراهيم في جملة من وفد للميرة ولم يكن اجتمع به إلا يومئذ، فكان بينهما هذه المناظرة، ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس، بل خرج وليس معه شيء من الطعام.

فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال: اشغل أهلي إذا قدمت عليهم، فلما قدم: وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام،

فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاماً طيباً، فعملت منه طعاماً. فلما استيقظ إبراهيم وجد الذي قد أصلحوه؛ فقال: أنى لكم هذا؟ قالت: من الذي جئت به. فعرف أنه رِزْقٌ رَزَقَهُموه الله عز وجل.

قال زيد بن أسلم: وبعث الله إلى ذلك الملك الجبّار ملكاً يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه. ثم دعاه الثانية فأبى عليه. ثم دعاه الثالثة فأبى عليه. وقال: اجمع جموعك وأجمع جموعي.

فجمع النمرود جيشه وجنوده، وقت طلوع الشمس فأرسل الله عليه ذباباً من البعوض، بحيث لم يروا عين الشمس وسلّطها الله عليهم، فأكلت لحومهم ودمائهم وتركتهم عظاماً باديةً، ودخلت واحدةٌ منها في منْخَر الملكِ فمكثت في منخره أربعمائة سنة، عذبه الله تعالى بها فكان يُضْرَبُ رأسُه بالمِرازب في هذه المدة كلها حتى أهلكه الله عز وجل بها.

حدائق بابل المعلقة

كانت حدائق بابل المعلقة شهادة على قدرة رجل واحد إلى خلق واحة نباتية من الجمال وسط كآبة منظر صحراوي، ضدّ كلّ قوانين الطبيعة.

اوجد الملك نبوخذنصّر الحدائق كعلامة احترام لزوجته سيمراميس التي، بحسب الأسطورة، اشتاقت إلى غابات وورود وطنها. كانت الحدائق وسطية ومحاطة بحيطان المدينة وبخندق مائي لصدّ الجيوش الغازية. هناك بقايا شكّ،على أية حال، بين المؤرخين وعلماء الآثار بالنسبة إلى حقيقة وجود هذه الجنة المفقودة أبدا، إذ أن أعمال التنقيب في بابل لم تجد أثرا جازما لها.

يمكن بعض القارئين الحين ما يعرفونها والقليل القليل اللي يعرفونها

ويعرفون عنها هذه المعلومات:

سميت معلقة لأنها نمت على شرفات القصور وشرفة القصر الملكي ببابل وذلك حوالي ٦٠٠ ق.م وحيث انه إكراما لزوجته شيد نبوخذ نصر صاحب الحدائق المعلقة وكان يريد أن يجدد مدينة بابل وذلك لتناسب جمال وفخامة وعظمة زوجته وكانت المدينة ذات:أسوار يبلغ ارتفاعها ٣٥٠ قدماً وثخانتها ٨٧ قدما وكان لهذه الأسوار مائة باب مصنوع من الذهب ولكل باب قوائم وسقوف من الذهب أيضاً.

وأعظم ما في المدينة الحدائق المعلقة التي تعتبر فتنة وعجيبة الدول والعصور القديمة أنها بنيت على عقود الحجر النفيس المقدم هدايا للملك وفي الزراعة كانت طبقات تصلح لمختلف النباتات والأشجار والماء يرفع ويخزن في الطبقات العليا بصهاريج لسقاية الأشجار.

أما البناء فيعد من أعظم الفنون المعمارية التي بلغتها بابل ونينوى وحيث تتصل الطبقات مع بعضها بدرج واسع وعنما يأتي الربيع وتزهر وتورق الأشجار والورود في هذه الارتفاعات في وسط أجواء الحرارة العالية تكون هذه الحدائق جنة في الأرض تنشر الرائحة العطرة والبرودة واللطافة لتستحق أن تكون من عجائب الدنيا السبع التي بناها نبوخذ نصر لكي تتمتع زوجته بهوائها وجمالها ورائحتها ولطافة جوها وخلابة منظرها.

وقد ظلت مدينة بابل التي تبعد عن بغداد مسافة ٨٥ كيلومترا إلى جنوبها، مصدراً ملهماً لمخيلة أجيال كثيرة من الفنانين والكتاب والمؤرخين وعلماء الآثار.

وهذا ما انعكس في فيض كبير من الأعمال الفنية والفكرية الكبيرة إضافة إلى إنتاج أفلام وموسيقى في عصرنا الحديث تستلهم القصصَ التي رويت عن هذه المدينة المندرسة. من خلال ما تم كشفه من أسرار للمدينة المختفية عن الأنظار على يد علماء الآثار خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

و من أبشع الجرائم التي ارتكبتها قوات الاحتلال الأمريكي للعراق هو بناء الجيش الأمريكي قاعدة للجنود والدبابات والمروحيات على آثار مدينة بابل العريقة، ما أدى إلى تهشم وتكسر الكثير من الفنون البابلية القديمة. إضافة إلى ذلك، استعمل الجنود الأمريكان آثار البابليين لتعبئة أكياس وأحواض الرمل التي تهدف للوقاية من الرصاص.

إضافة لذلك، فقد تكبدت بوابة عشتار الأثرية أضرارا هائلا أيضا.

وقد تم توجيه اتهامات ضد الجيش الأمريكي بعد نشر صحيفة "ذا غارديان" أخبار التخريب لآثار بابل؛ كان رد الجيش هو أنه كان يعمل لحماية الآثار، وصرح بأنه لو لم يكن الجيش الأمريكي هناك في ذلك الوقت، "لسرقة الآثار" ولكان الثمن "أكثر بكثير"، حسب تعبير قائد الجيش في ذلك الوقت جيمز كونوي.

٣

الحضارة الآشورية

التاريخ هو مرآة الحاضر وأساسه، فالحضارات القديمة الأولى هي تعكس الماضي الذي بناه أجدادنا والتطور الذي كانوا فيه، ولو عدنا إلى التاريخ القديم ودرسنا أشهر وأعظم الحضارات لوجدنا بأن حضارة ما بين النهرين هي الأقدم والأعرق والأكثر تأثرا على البشرية حتى يومنا هذا، فهذه الحضارة المدنية وصلت إلى أعلى درجات الرقي والتقدم في كل المجالات،فعلى ضفتي نهري دجلة والفرات بنيت أعظم المدن في التاريخ/ سومر ـ أكاد ـ بابل ـ نينوى ـ آشور ـ أور / وغيرها، ومنها ظهرت أولى الكتابات باللغة المسمارية ودونت الأساطير على الألواح الحجرية، وسنت أولى القوانين / قانون حمورابي / وتم دراسة علم الفلك ورصد النجوم، ووضعت أولى المسائل الهندسية، وبنت السدود على الأنهار، واشتهرت بفن النحت والعمار، وكانت أعظم إمبراطورية عسكرية امتدت سيطرتها من مابين النهرين إلى مصر وتخوم الصين، ونشرت المدنية والعلم والمعرفة في كل إرجاء العالم.

لقد كانت حضارة ما بين النهرين في مراحلها التاريخية والتي استمرت أكثر من ثلاثة آلاف سنة حضارة واحدة غير متجزأة، فرغم تعدد التسميات التي جاءت نسبة لتغيير الحكم من سيطرة إلى آخرة، فالتسميات / سومري ـ

آكادي ـ بابلي ـ أشوري ـ كلداني / فالسومريون سميوا نسبة لمدينة سومر، والآكاديون نسبة لمدينة آكاد، والبابليون نسبة لمدينة بابل، والأشوريون نسبة لمدينة آشور،وعندما سيطر الكلدانيون على الحكم كانت بابل هي عاصمتهم، إذ رغم تغيير الحكم من مدينة إلى أخرى فالشعب هو نفسه والحضارة هي امتداد لهذا الشعب الذي بنى حضارة بدأت منذ حوالي سنة ٣٢٠٠ ق.م. إلى سنة ٥٣٩ ق.م. وأصدائها وتأثيرها مستمر على البشرية حتى يومنا هذا.

المعتقدات عند شعب ما بين النهرين:

ككل شعب بدائي قدس شعب ما بين النهرين مظاهر الطبيعة، فعبدوا القوى الكامنة ورائها، كحرارة الشمس أو قوة المياه أو الطوفان أحيانا (ملحمة كلكامش) وعنها أخذت قصة الطوفان أيام نوح.

فكان طبيعي في بلاد خصبة أن يؤله الخصب في الدرجة الأولى.

ولقد احتفظ سكان مابين النهرين في المراحل التاريخية بآلهتهم، فنرى البابليون يحتفظون بآلهة سومر وآكاد ولكنهم جعلوا (مردوخ) اله بابل في مقدمة آلهتهم، والآشوريون جعلوا (آشور) في المقدمة وكانت الآلهة (عشتار) ملازمة له.

ولقد تعددت الآلهة بتعدد المدن ـ (انو) اله السماء (انليل) إله الأرض (ايا) إله المياه الجوفية (شمش) إله الشمس (سين) إله القمر (ادد) إله الطبيعة، وأضافت كل دولة اله خاص بها، مثل (مردوخ) (آشور) (عشتار) (نبو).

وفي المرتبة الثانية: كرم سكان ما بين النهرين أنصاف الآلهة مثل: (كلكامش).

فنون النحت والعمار

في مجال النحت اهتم الفنانون في بلاد ما بين النهرين في إبراز معالم الوجه وتقاسيمه، فأتى التمثال مطابقا لأوصاف صاحبه، فبرع السومريون بالحفر والتطعيم بالعاج، وأتقنوا صناعة الخزف، ولقد اختلفت الأشكال في المراحل التاريخية في ما بين النهرين، فالشكل المحبب لدى السومريون لم يظهر في التماثيل البابلية، وجسد الآشوريون في نماذجهم كل ما يمثل القوة، كالأسد والثيران المجنحة، واللبوة الجريحة، حتى أن الملك يمثلونه دائما أثناء الحرب أو الصيد، ويبرز فنانوهم تفاصيل الوجه والعضلات المفتولة للدلالة على القوة، بينما يسترون بقية الجسم برداء فضفاض، ومن هذه الفنون الآشورية قبس الفرس فيما بعد أشكال تماثيلهم.

وفي فن العمارة، اعتمد البناءون على الطين المجفف أو اللبن، وكلاهما أصل صناعة الآجر فشووا الحجارة في الأفران حتى غدت قاسية، ومن أهم أشكال العمارة وأشهرها: قصر (خورساباد) في نينوى عاصمة الآشوريون، وقصر بابل في العهد الكلداني، وقصر نبوخذنصر، وبرج بابل بجنائنه المعلقة، ومن الأبنية الدينية، وعرفت بالمعبد باسم (الزاقورة).

الفكر والعلوم

خلفت حضارة ما بين النهرين الكثير من الآثار الفكرية، وحفظ معظمها في مكتبة آشور بانيبال، وتقدموا في العلم فتركوا منجزات لا نزال نقرها في حياتنا اليومية، وعبرت عن آدابها بالعديد من الأساطير والملاحم.

فالسومريون دونوا أفكارهم فوضعوا أسس الكتابة وطورها الاكاديون

من بعدهم وعرفت بالكتابة المسمارية. وكتبت الأعمال الأدبية والتي تناولت الرثاء بشكل أناشيد.

ولقد كان التشريع والقانون من أهم هذه الآثار التي اهتموا بها واهم ذلك (قانون حمورابي) فجمع ٢٨٢ مادة تشريعية، وتبنى هذه القوانين الآشوريون ليصبح قانون الدولة الرسمي.

التقويم

انبثق معرفة سكان ما بين النهرين بمعرفة التقويم بألمامهم بالتنجيم. ويبدأ العام في الربيع ببداية نيسان، فترة انتعاش الطبيعة، وقسمت السنة إلى فصلين، ويبدأ أحدهما في نيسان والثاني في (تشريت) (تشرين الاول).

الفصل الأول: نيسان:(آذار ـ نيسان) تيار: (نيسان – أيار) سيوان: (أيار – حزيران) تموز: (حزيران – تموز) آب: (تموز – آب) ألول (أب – أيلول).

الفصل الثاني: تشريت: (أيلول – تشرين الثاني) حسامنا: (تشرين الأول – تشرين

الثاني) كسيمو: (تشرين الثاني ـ كانون الأول) تابت: (كانون الأول – كانون الثاني) شباط: (كانون الثاني – شباط) آذار: (شباط – آذار).

الأعداد والمقاييس

لقد تم تطوير العد ونظام العد الرقمي، بحيث يتم العد إلى الستون، ويظهر اعتماد النظام الستيني في تقسيم الساعة إلى ستين دقيقة، والدقيقة إلى ستين ثانية، كذلك المثقال يساوي ستين وزنة، والوزنة ستين حبة، والشكلو) ١٨٠) حبة، وجاء مكملا للنظام الاثني عشري، لا ناقصا له، كقسمة اليوم

إلى اثني عشرة فترة (مدة كل منها ساعتان) والإعداد إلى دزينات (١٢ وحدة) وكل خمس دزينات تساوي العدد ستين، ونحن اليوم إذ نشتري (بالرطل) (١٢ أوقية) إنما نطبق هذا النظام الذي كان يطبقه سكان ما بين النهرين منذ أكثر من ٥٣٠٠ سنة!

الطب

كانت مهنة الطب مرادفة في اغلب الأحيان لكهنة المعابد، وكانت معلوماتهم أولية، ومن اجل تنظيم مهنة الطب فلقد وضعت شروط قاسية لمن يمتهنها بحيث كان يعاقب كل طبيب يخطئ بالوصفة أو يجري عملية تودي بحياة المريض، ولقد نظم الملك حمورابي قانون مهنة الطب، ولقد اقتبس الآشوريون الوسائل العلمية الفرعونية، وفصلوا بين المفهومين الديني والعلمي، وغدا للطب مهنة مستقلة وقربهم الملوك منهم نظرا للحاجة لهم.

المجتمع والجيش

كان الملك هو رأس المجتمع، وصاحب السلطة الزمنية ويمثل الإله على الأرض، دون أن يتخذ وصفة الألوهية، وينقسم المجتمع إلى ثلاثة طبقات:

١- الأحرار: وقد اعتبرهم حمورابي العنصر الرئيسي، والعائلة لديهم نواة المجتمع، وتأسيس العائلة يمر بنفس المراحل التي نعرفها اليوم، كالخطوبة تسبق الزواج والإنجاب غاية الزواج.

٢- المساكين: (مشكينو) أي الفقراء وحياتهم اليومية هي العمل المستمر في الحقول والري والعناية بالاقنية، فيعتنون عادة بأراضي الملك أو المعبد أو الإقطاعي.

٣ - العبيد: وهم الطبقة الدنيا والأخيرة، وهم ملك لأسيادهم، ووصلوا إلى هذا الأمر أما عن طريق الأسر في الحروب أو البيع، ولقد انيط بهم تنفيذ الأعمال الشاقة والمهن الوضيعة.

الكهنة:

تميز الكهنة بسلطة قوية أيام السومريون، فالملك السومري هو الكاهن في الوقت ذاته، وأخذت سلطة رجال الدين تتضاعف، نتيجة لاعتقاد الناس بالسحر والتنجيم والطلاسم، وأصبحت استشارتهم واجبا في حال انتقال الحكم من السلف إلى الخلف، وهذا لم يمنع من الاعتراف بالملك كاهنا أعلى، دون أن تكون له صفة إلهية، وتضم حاشيته عددا كبيرا من كهنة البلاط، وفي مرتبة ادنى كهنة المعابد ولهم مرتبة معنوية لأنهم ربطوا بين الطب والدين ويفسرون مشيئة الآلهة في اختيار العرش وفي تأدية النصح إذا كانت الظروف ملائمة للحرب.

الكتبة والموظفون:

يؤخذ الكتبة من بين الكهنة، ومن بين الكتبة يؤخذ الموظفون الكبار، ومع اتساع رقعة الإمبراطورية اشتدت الحاجة إلى الموظفين، ونشط التراسل العاصمة والمقاطعات، وانتشرت الكتابة المسمارية خارج بلاد الرافدين، وبلغ عدد الموظفين في أيام حمورابي عشرات الآلاف، أما الآشوريون فقد اختصروا المعاملات الإدارية وبسطوها، لان الحكم عسكري والمعاملات الإدارية تناط بالجيش.

الجيش:

لم يتطور الجيش إلا مع الآشوريون وفي هذا الوقت وصلت الفتوحات إلى البحر المتوسط، واتسعت إمبراطورية ما بين النهرين لتكون الأكبر والأقوى، وكان يرأس الجيش الملك نفسه، أو قائد من قبله يدعى (تورتان)

الاختصاصات في الجيش:

١- المشاة: عددهم وفير سلاحهم القسي والحراب والسيوف يتقون الطعن بالخوذة والدروع، يجهزون القوارب ليجتازوا الأنهار وهذا ما يتيح السرعة في الحركة والمناورة ويعزز عنصر المباغتة.

٢- الخيالة: وهي فرقة مستحدثة لدى الآشوريون، اعتمادها على سرعة الهجوم والالتفاف تكتفي بما خف من السلاح.

٣- الهندسة: وتبرز مهمتها في حرب الحصار، مجهزة بسلالم لتسلق الأسوار وبمدكات ضخمة لتحطيم أبواب القلاع والحصون، يلبس أفرادها الدروع كحاجز وقائي، ولهذه الفرقة مهمتها أيام السلم أيضا فهي التي تمهد الطرقات وتبني الجسور.

٤- المركبات: ويجر المركبة جوادان أو ثلاثة، فعاليتها في الصدام مع العدو وهو سلاح مصمم للهجوم واقتحام الصفوف، يقف فيه جنديان احدهم يقود والثاني يرمي السهام.

٥- البحرية: اعتمد الآشوريون على الفينيقيون في إنشاء أسطول حربي لكثرة الخشب في جبل لبنان، والسفن المعدة للصدام مقدمتها دقيقة ومنخفضة وظيفتها اختراق سفن العدو، أما ما كان منها مخصصا لنقل الجنود والاعتدة فله مقدمة عالية تمثل رأس حيوان.

والفترة التاريخية ما بين سقوط بابل ونينوى وقدوم المسيحية هي فترة مضطربة وغير واضحة المعالم تقريبا لكونها فترات حروب وتناطح السلطات الأجنبية فيما بينها للاستيلاء على منطقة الرافدين الاستراتيجية، وفترة ثورات وتمردات من السكان الأصليين، فبعد سقوط نينوى فر عشر من قواد الجيش ببعض فرقهم إلى أطراف المملكة "منطقة الرها"وشكلوا هناك مملكة عسرايا أي مملكة القواد العشر، ويذكر التاريخ أن هذه المملكة الصغيرة تحالفت مرات عديدة مع الفراعنة من اجل استعادة نينوى سلطة بلاد الرافدين من الفرس، كما قامت عدة ثورات في بلاد الرافدين إلا أنها فشلت، وقد بقي بعض ملوكها حتى عهد السيد المسيح، ومنهم ابجر الخامس الذي يقال انه راسل السيد المسيح وطلب منه أن يسكن في مدينته.

فبعد سقوط بابل بيد كورش لم يحاول كورش أن يحنث بوعده للكهنة، فترك لهم حرية ممارسة الشعائر الدينية والعبادة واحترم آلهتهم فكان أن ضمن خضوع الكهنة له خضوعا كاملا وكان يحصل على جميع الضرائب بسهولة من خلالهم، إلا أن فترة حكم الفرس للرافدين لم تدم طويلا، إذ أن مطامع أوروبا من تلك الفترة كانت تتجه إلى الشرق، فكانت حروب الإسكندر المكدوني واحتلال بلاد الرافدين بالكامل وسقوط داريوس صريعا في إحدى الحروب قرب اربيل الحالية عام ٣٣٢ ق.م نهاية للوجود الفارسي في بلاد الرافدين لفترة طويلة استمر خلالها حكم اليونان لهذه المنطقة.

وبما أن بقايا رعايا الدولة الآشورية كانوا يملئون هذه البلاد فكان أن أطلق تسمية Assyrian على الشعب القاطن في بلاد الرافدين لعدم وجود

حرف الشين في اللغة اليونانية، وحرف الشين في اللغات الأوروبية الحديثة مركب من حرفين هما "c-h" تمييزا له عن غيره فعمت هذه التسمية على جميع الفئات دون تمييز بين فئة وأخرى أي بين ساكني مناطق بابل أو نينوى أو الجبال العالية، فأصبحت تسمية حكومية عامة لجميع سكان بلاد الرافدين، وقام سكان الرافدين بترجمتها إلى لغتهم الآرامية باسم "ܣܘܪܝܝܐ" وذلك بسبب عدم وجود أل التعريف في بداية أسماء الأعلام لهذه اللغة، فعمت تسمية سريويه أو سريايا على جميع سكان بلاد الرافدين دون تمييز "لان عادة حذف الهمزة من أول الاسم معهودة عند العرب والسريان واليونان كما تبين فقد تحول الاسم إلى سريان من آسريان ومنذ فجر النصرانية اعتاد السريان بل اتخذوا لفظة سوريا الموجزة للمعنى الديني ولفظة سوريايا للمعنى الوطني".

وقد تطورت لغتهم أيضا تطورا كبيرا خلال هذه الفترة من حيث النحو والتطبيق والصرف وعرفت بالسريانية "ܠܫܢܐ ܣܘܪܝܝܐ" نسبة إلى التسمية التي اتخذها الشعب بالكامل.

وبعد موت الإسكندر المقدوني وانقسام الإمبراطورية المكدونية إلى قسمين كان نصيب سكان الرافدين ضمن سلطة السوقيين خلفاء "الاسكندر المقدوني"إلى أن جاء الكاشيون عام ٢٥٠ق.م وأسسوا ممالك مستقلة في المدائن وغيرها إلى أن قويت شوكة ملوك الفرس من جديد.

فانقض اردشير بن بابك في جيوش جرارة على سهول ما بين النهرين وارزون وبازبدي وبابل وظفر بارطبان آخر ملوك الفرثيين ونصب كرسيه في المدائن".

وأن التواريخ التي تبحث في حياة السريان وواقعهم الاجتماعي نادرة جدا حتى بدء الديانة المسيحية بالانتشار في هذه المنطقة أي في القرن الأول الميلادي، عندئذ بدا بتأريخ حوادث السريان المسيحيين في الأديرة والكنائس على الأغلب، "ولم يبق لنا من أدب هذه الفترة كتابات مدونة إلا القليل جدا واغلبها كان في الرها لكونها مملكة مستقلة واهم هذه المدونات كتابات بعض القبور وتأريخ فيضان نهر ديصان وما نتج عنه ثم رسالة مارا بن سارابيون من السجن إلى ابنه وهي رسالة أدبية وجملة نصائح يقدمها إلى ابنه.

وكان للصراع الدائر بين الروم والفرس تأثير سلبي كبير على الحياة الاجتماعية وحياة الاستقرار للسريان المنحدرين من أصول الحضارة الآشورية البابلية، فقد ساهمت هذه الحروب التي استمرت عدة قرون في تحطيم حياة الاستقرار وخلق البلبلة والفوضى في حياتهم لكونهم كانوا يقطنون بوسط المعارك، فمدينة نصيبين كانت حدودا فاصلة بين الدولتين، وهذا ما أدى إلى كره السريان ويأسهم من كلتا الدولتين، فكانوا يطمحون إلى التخلص من هذا الاستبداد بأية وسيلة كانت، لذا عندما جاءت الجيوش العربية الإسلامية عام ٦٣٧ م إلى بلاد الرافدين رحب بها السريان الشرقيين منهم والغربيين أملا في التخلص من واقع الظلم والاستبداد الذي ذاقوه من قبل الفرس والروم مئات السنين، وقد حصلوا فعلا على عهود بالأمان من قادة جيوش المسلمين ومن الخلفاء.

"وقد انضم بعدئذ قسم من السريان المسيحيين إلى الديانة الإسلامية الجديدة منذ بداية وصولها مثل "الطي، والتكارتة، في جنوب بلاد الرافدين، بعضهم طمعا في المغانم التي يحصل عليها المسلم من الحروب، وبعضهم

الآخر تهربا من تصرفات بعض رجال الدين ومما لاقوه على أيديهم من ويلات، وبعضهم بسبب عجزهم عن دفع الجزية التي كانت تفرض على غير المسلمين كضريبة حماية".

وهناك بعض أحفاد الآشوريين البابليين الذين حافظوا على معتقداتهم الدينية القديمة-ولم يدخلوا المسيحية ولا الإسلام وهم الصابئة أو المندويين القاطنين في جنوب الرافدين وقد اتصل السريان الشرقيين بالرسول العربي من اجل التعاون على طرد الروم والفرس من بلادهم "ولما اشتهر أمر النبي محمد ودعوته راسله بطريرك السريان النساطرة/ ايشوع هيب الثاني الجدلاني/ بغية التفاهم على طرد الروم والفرس من بلاد السريان.

وقد أثار المستشرق لوك في كتابه "الموصل وأقلياتها" إلى هذا التفاهم بقوله: "إن النبي العربي قطع عهدا للشعوب السريانية بالمحافظة على حرمة جميع المراكز الدينية وإعفائها من الجزية إذا اجتاح تلك البلاد".

وقد احتفظ السريان الشرقيين بوثيقة العهد التي قطعها لهم الرسول العربي في أديرتهم حتى الحرب العالمية الأولى. وجاء في تاريخ الأدب السرياني "إن ايشوعهيب الثاني قام بنشاط عظيم عندما حاصر المسلمون بابل ووقع على شروط الصلح لتكون منطقة بابل لصالح المسيحيين وجدد وثيقة العهد عمر بن الخطاب، كما يتطرق ابن العبري أيضا في كتابه تاريخ الكنيسة إلى هذه الوثيقة، ويذكر المطران يوحنا دولباني في تاريخ دير مار كبرييل "في عام ٦٤٠ قدم عياض بن غنم إلى آمد ونصيبين وطور عبدين ومارين فدخلها صلحا بدون حرب وقد أعطاهم مار كبرييل مطران طور عبدين طريقا وساعدهم ثم زار في الجزيرة أميرهم واخذ عهدا وبراءة بتوقيع أميرهم وعلى

الأرجح هو عمر بن الخطاب، بمنحهم حرية إقامة الشعائر الدينية والاحتفالات وترميم الكنائس والأديرة وإعفائها من الجزية وتعهد بحماية ديارهم.

وقد استعان العرب المسلمون بالسريان وبالأخص الشرقيين مثل سمعان بن الطباخين وغيره في ترتيب أمور الدولة وتنظيم الأجهزة الإدارية وتنظيم الحياة الاجتماعية والثقافية والعلمية ومن أشهر علماء السريان الذين أتحفوا الإنسانية بعلومهم حنين بن اسحق وأبي بشير ويوحنا بن جلاد ويحيى بن عدي والكندي وآل بختيشوع وغيرهم، الذين ألفوا وترجموا ونقلوا مختلف العلوم من طبية وفلكية وعلمية ومن اللغات السريانية واليونانية والفارسية إلى اللغة العربية أتحفوا المكتبة العباسية بمصنفاتهم وعلومهم، ولم يدم هذا الازدهار الثقافي بسبب فقدان العرب السلطة وسيطرة الأجانب عليهم وحتى بيت الحكمة (المكتبة العباسية) كان يديرها السريان الشرقيين وان وظيفة طبيب الخليفة كان يشغل دائما من قبل طبيب سرياني.

وقد كان لتدهور سلطة الدولة العربية الإسلامية وغزو التتار والمغول لبلاد الرافدين دور كبير في اضطهاد السريان أحفاد الآشوريين والبابليين والآراميين عامة، وقد عانوا الأمرين من جراء الظلم والاضطهاد والتدمير وتخريب الأديرة وحرق المصنفات والكتب الدينية والتاريخية، وبالرغم من اضطراب حبل الأمن في مناطق سكنى السريان أحفاد الدولة الآشورية فقد ظهر بعض العلماء المشهورين من أمثال يوحنا المعدني وميخائيل الكبير وأبي الفرج ابن العبري وموسى بن كيفا ويعقوب ابن الصليبي والقرداحي وعبد يشوع الصوباوي والرهاوي المجهول وداود الفينيقي وغيرهم، وقد كان لهم

دور كبير في نشر الثقافات الأدبية والفلسفية وعلوم الطب والرياضيات والهندسة وغيرها، وقد نشر هؤلاء مختلف الكتب والمقالات الدينية والفلسفية التي كان لها دور كبير في نمو الوعي الفكري في عصر الظلمات والتخلف والجهل الذي نشرته الشعوب الغازية التي دمرت معالم الحضارة في الشرق بالكامل تقريبا، وهكذا بنهاية القرن الخامس عشر يخفت نور العلم والأدب عند السريان في الشرق بعد أن حل بدل لغتهم السريانية الأدبية اللغة العربية لغة الفاتحين الجدد، ولكونها لغة حكام الدولة ولغة الدين الجديد، بعد أن بقيت هي اللغة العلمية والأدبية في الشرق لأكثر من ألفي سنة متتالية.

آشور.. وقصة الملكة سميراميس:

آشور هي المدينة-الدولة التي أصبحت عاصمة المملكة الآشورية القديمة، اسمها القديم " بال تـل " وشكلت مع "نينوى" و"أربيل" المنطقة النواة للممالك الآشورية المتعاقبة. كانت تقع علي بعد ٦٠ ميل جنوب مدينة الموصل حاليا بشمال العراق على ضفاف نهر الدجلة واندثرت المدينة عام ٦١٢ق.م.

وكانت العاصمة للمملكة الآشورية في شمال وادي الرافدين سنة ٢٥٠٠ ق.م، إلا أن الملك " آشور ناصربال الثاني " (٨٨٣-٨٥٩ ق.م.) قام بنقل العاصمة شمالا إلى مدينة " كالح "، " نمرود حاليا "، بعدما سقطت الإمبراطورية الآشورية عام ٦١٢ق.م. ودمرت مدنها الكبيرة.

وآشور إمبراطورية قديمة كانت في أعالي نهر دجلة، ببلاد الرافدين، وتشمل الجزء الشمالي تقريبًا من العراق الحديث. أما حضارتها فكانت في أوجه عديدة مماثلة لحضارة جارتها بابل القديمة التي تقع إلى الجنوب منها.

و قد أُطلق على الآشوريين اسم " رومان آسيا " إذ كانوا فاتحين عظماء، كما كانوا يحققون انتصاراتهم بالتنظيم والسلاح والمُعَدَّات الممتازة.

وبلاد آشور أرض هضاب مُمتدّة. حافظ نهر دجلة، والروافد الصغيرة التي تغذيه، على خصوبة ودْيانها. وإلى الشمال منها، ترتفع جبال أرمينيا، بينما تقع إلى الشرق منها جبال زاغروس، وتلال إيران المرتفعة.

ولم تكن هذه الأراضي الجبلية لتجذب الآشوريين إليها، إلا أن الأراضي الواقعة في الجنوب والغرب كانت أفضل من أراضيهم.

وهكذا كانت أراضي بابل الغنيّة والسهول الخصبة في بلاد ما بين النهرين وسوريا عرضةً للفاتحين الآشوريين. أما المُناخ الطبيعي في آشور فكان أفضل للزراعة منه في بابل، حيث الجوّ أكثر برودة بينما المطر أكثر غزارة. إلا أن الريّ كان ميسورًا في سهل بابل، بينما كان صعبًا جدًا في الهضاب الآشورية.

ومنذ أن بدأ الآشوريون السير في طريق الفتوح، فقد استوْلَوْا على ما هو أكثر من الأراضي الزراعية الخصبة المجاورة لهم، حيث ضمت الإمبراطورية الآشورية أراضي صالحةً للتعدين، ومناطق غابات، وأنواعًا عديدة أخرى من الأراضي.

أما آشور نفسها فظلت بلادًا زراعية، كما توفرت فيها كميات من حجارة البناء الجيدة، وبعضُ الأخشاب، وقليلٌ من المعادن.

وكان هناك أناس يعيشون في شمال وادي الرافدين قبل أن يَعْمُرها الآشوريون (الذين عُرِفُوا بعد ذلك) بفترة طويلة. فقد بنى مستوطنون من جنس مجهول قرى صغيرة حيث قامت آشور وعاشوا في مجتمعات لها بعض

خصائص الحياة القبلية. وتُظْهِر قطعٌ من الفخار المكسور، والأدوات الحجَرية، وأساسات لبيوت بدائية، وجود سكان في آشور يعودون إلى العصر النيوليتي (العصر الحجري الحديث) أي قبل ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ سنة. ويستطيع علماء الآثار أن يتعقبوا التغيرات التي طرأت على صناعة الفخار، ليخبرونا عن قدوم شعب جديد إلى آشور كما أنهم قادرون على وصف التقدم البطيء في الحضارة، إلا أن هؤلاء الأقوام الأوائل لم يتركوا أثرًا مكتوبا وهو ما يجعلنا لا نعرف الكثير عن تاريخهم.

وقبل سنة ٣٠٠٠ ق.م، تدفقت شعوب ساميّة إلى حيث قامت آشور، كما فعل ذلك أيضًا شعب آخر من سهل سومر المجاور. إلا أن الآشوريين في العصور التاريخية كانوا خليطًا من أجناس كثيرة جدًا. فعندما يُطلق الكُتّاب صفةَ الشعب السامي على الآشوريين، فهم يقصدون لغتهم أكثر من قصدهم العنصر الذي ينتمون إليه.

وكان الآشوريون يرتدون الأردية والخف والنعال (الصندل)، أما شعور رجالهم فكانت طويلة، بينما كان كثير منهم يطلقون لحَاهُم، إذ كان معظم الرجال يطلقون لحى قصيرة، بينما كانت لحى الموظفين من ذوي الرتب العالية طويلةً ومشذبة عند نهايتها على شكل مربع.

وكان معظم الآشوريين سكان مدن ومزارعين وأعضاء في جماعات شبه بدوية، تتجول من مكان إلى آخر قريبا من المناطق الآهلة بالسكّان. أما بلاد آشور فكانت مُقسَّمة إلى إقطاعيات كبيرة يديرها إقطاعيون.

وعاش المزارعون في قرى صغيرة في هذه الإقطاعيات. واشتغلوا في الأرض، وحفروا قنوات الري التي كانت تنقل المياه إلى المزارع، وتساعد في

ضبط الفيضانات. وكانوا يعيشون في أكواخ سقوفها من القش، وجدرانها مبْنيّة من الأغصان المجدولة والطين. أما أهم محاصيلهم الزراعية فكان الشعير، كما كان المزارعون في الوقت نفسه يُربُّون المواشي، وينْتِجون الحليب، ومنتجات الألبان الأخرى.

وكان في آشور عدد قليل من المدن الكبيرة من أهمها "آشور" و"كالو" و"نينوى". وقد عمل معظم سكان المدن حرفيّين أو تجارًا. وكان الحرفيون يصنعون الفخاريات، ومشغولات من الذهب والفضة والبرونز والعاج والخشب.

أما مدنهم فكانت محاطةً بأسوار يحرسها رماة السهام لحمايتها من أي هجوم يقع عليها. وكان السكان يزرعون الفواكه والخضْراوات والكروم في البساتين الواقعة في الأراضي المَرْوِيَّة خارج أسوار المدينة.

وكانت الجماعات شبه البدوية تتكون، في معظمها، من العبيد الهاربين والزراع الفاشلين والأشخاص الذين يُطْرَدون من المدن. وكانت جماعات من هؤلاء تقوم بين وقت وآخر بالإغارة على المدن ونهبها. وهكذا فإن العلاقات بين سكان المدن والجماعات شبه البدوية كانت متوترة باستمرار، بينما كان الملوك يسعون دائما إلى تعزيز سيطرتهم على الأرض وقتما يعتلون العرش.

ولم يكن في بلاد آشور إلا أعداد قليلة من العبيد. فمعظمهم كانوا إما أسرى حرب، أو أشخاصًا لم يتمكنوا من تسديد ديونهم. كما كان بعض الآشوريين يُجْبَرون على بيع زوجاتهم وأبنائهم كي يتمكنوا من الوفاء بديونهم.

أما بالنسبة للغة، فقد تكلم الآشوريون الأوائل لغة سامية ذات صلة باللغتين العربية والعبرية الحاليتين، واستخدموا نظامًا في الكتابة عرف باسم الكتابة المسمارية، مستعارة بتطوير من السومرية، وكانت تتكون من رموز مسمارية الشكل منقوشة على ألواح من الطين.

وجمع ملوك آشور ألواح الطين في مكتبات ضخمة. واحتوت مكتبة آشور بانيبال، التي اكتُشفت في نينوى في أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، على ألواح تعالج الدين والأدب والطب والتاريخ وموضوعات أخرى. وقد فهرس أمناء المكتبة الآشوريون هذه الألواح بعناية، واحتفظوا بها على رفوف. ويحتفظ المُتْحَف البريطاني في لندن، حاليًا بمعظم ألواح مكتبة آشور بانيبال، وكثير منها موضوع للعرض.

كذلك كتب الآشوريون نصوصًا قانونية. وتعود القوانين الآشورية الوسيطة إلى حوالي عام ١٤٠٠ق.م. مثلها مثل شريعة حمورابي، وتتكون هذه القوانين من نماذج لقضايا صدر في كل منها حكم ما. إلا أن العقوبات التي كان يفرضها الآشوريون على منتهكي القانون كانت أكثر قسوة من تلك التي يفرضها البابليون.

وقد تكلم معظم الآشوريين المتأخرين اللغة الآرامية. وكان الكثير من كتاباتهم يُكتب بالخط الآرامي، وربما كانت الكتابة بالحبر على الرَّق. إلا أن الآرامية لم تحل، بشكل كامل، محلّ الكتابة المسمارية؛ تعايشت اللغتان المكتوبتان معًا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، إلا أنهما كانتا تستخدمان لأغراض مختلفة. فبينما كانت النصوص التاريخية والدينية تُكتَب بالخط المسماري.

استخدم الآشوريون اللغة الآرامية في أشغالهم اليومية. وقد تلف معظم قطع الرق الآرامية منذ زمن طويل، وبذلك لم يتمكن العلماء إلا من معرفة القليل عن نشاطات الآشوريين التجارية، خلال مئات السنوات القليلة الأخيرة من تاريخهم.

وكان شعار آشور يصور قرص الشمس المجنح وبه معبود لهم مسلح بقوس. وبلاد آشور عبدت آشور بوصفه إلها للشجاعة العسكرية والإمبراطورية، سميت البلاد باسمه. وتعود هذه المنحوتة الحجرية إلى القرن التاسع قبل الميلاد.

الديـن

الديانة الآشورية وثيقة الصلة بالديانات السومرية والبابلية. وقد آمن الآشوريون بأن هناك آلهة عدة توجه مصير الإنسان وتسيطر على السماء والأرض والماء والعواصف والنار، كما كانوا يؤمنون بالأرواح الخيِّرة والشريرة وبالسحر.

- الرمز المسماري في وسط الدائرة: كلمة آشور مكتوبة باللغة الآشورية القديمة العريقة.
- اللون الأحمر: اللون الملكي للإمبراطورية الآشورية كما يمثل الشجاعة، والمجد، والفخر وهي رموز التضحية لآشور.
- الأزرق الداكن: يمثل الوفرة التي نعتزّ بها في أرض آشور وحكمة أجدادنا، كما يمثل أيضاً اللون الملكي الآشوري.
- اللون الأبيض: يمثل السلام والطمأنينة وهي شيَم يتطلع الآشوريين إلى مشاركة الآخرين فيها كما يرمز هذا اللون إلى أزلية آشور.

- الأحمر والأزرق والأبيض هي أيضاً ألوان العلم الآشوري والخطوط المتماوجة ترمز إلى الأنهار الثلاثة الرئيسية في آشور: دجلة والفرات والزاب.
- الدائرة: رمز الكمال والقدسيّة وكلمة (أنا) مكتوبة على الجانبين تكتنف كل آشوري يفكر ويكون ويعمل لآشور، لذا وبهذا المعنى كل آشورية وآشوري هم أنا آشور.
- أنا آشور: الأرض التي تكتنف العطاء والإنجازات لحضارة عظيمة هي آشور.
- أنا آشور: الهوية وهي التاريخ والثقافة والإرث وكل هذه المقومات تشكل الشخصية الآشورية المميزة.
- أنا آشور: اللغة فهي تعبِّر عن الأفكار والفكر والمشاعر فكل هذه تربط الآشوريين مع بعضهم البعض.

الأرض، الهوية، واللغة هي القواسم الثلاثة المشتركة التي تكوّن الصوت الحق والعادل لآشورنا ألا وهو أنا آشور.

لذا فكل الأعضاء ومناصري وأصدقاء أنا آشور يرون أنفسهم ويقدّرون كل ما يرمز إليه أنا آشور.

وقد اختلفت ديانة الآشوريين عن الديانات السابقة في بعض الوجوه؛ فإله آشور الأكبر هو آشور أو آسور، وهو الاسم نفسه الذي يُطْلِقُه الآشوريون على بلادهم ومدينتهم الأكثر أهمية، بينما كان مردوك هو إله البابليين الأكبر. ولم يكن الملوك البابليون قادة متدينين، إذ كان بإمكانهم أن يدخلوا المعبد مرة واحدة في السنة وفي ظل ظروف خاصة. أما الملك

الآشوري فكان حاكمًا، وفي الوقت نفسه كان كاهنًا أكبر، إذ كان الشعب الآشوري يعتبره حاكمًا من قبَلِ الإله آشور على الأرض.

وقد عبد الآشوريون آلهة أخرى، منها نبو، إلهاً للعلم وراعيًا للكتاب، ونينورتا، إلهاً للحرب وعشتار، إلهاً للحب. وقد اشتهرت عشتار في نينوى حتى أن تمثالها أرسل مرة من هناك إلى مصر اعتقاداً أنها ستساعد الملك المصري في شفائه من مرض ألمّ به. كذلك اعتاد الآشوريون تقديم الطعام والأشياء الثمينة إلى آلهتهم. وكان الكهنة يحاولون توقع المستقبل بفحص الأحشاء الداخلية للقرابين وملاحظة ما يحدث في الطبيعة مثل حالات الطقس وتحليق الطيور، وتأويلها.

و تعد "موناليزا نمرود" مثال جيد للفن الآشوري وربما استخدمت هذه المنحوتة العاجية لزخرفة قطعة أثاث آشورية. ويبلغ ارتفاع الرأس نحو ١٥ سم. ويظهر خادمان ملكيان لسرجون الثاني ملك آشور كما يظهران في منحوتة بارزة ـ باز ريليف جرى ترميمها، عثر عليها في خورسا باد في العراق الحديث. ويعود تاريخ المنحوته الأصليه إلى حوالي سنة ٧٠٠ق.م.

الفن والعمارة

أما بالنسبة للفن والعمارة، فقد شابه فن الآشوريين الأوائل فنون بابل والحضارات الأخرى المجاورة إلا أن أسلوبًا مغايرًا في الفن الآشوري أخذ في التطور في الفترة ما بين ١٤٠٠ و١٠٠٠ق.م. إذ قام الحرفيون الآشوريون بصناعة أجمل أختام أسطوانية أُنتجت في بلاد الرافدين، وكانت هذه الأختام تُدَحرج على الطين الطريّ لتختم بها الوثائق والأشياء الأخرى.

وقد زخرف الآشوريون الأوائل أبنيتهم برسوم جدارية، وبالطين الملوّن الوضّاء. وفي مرحلة لاحقة، بين سنتي ٩٠٠ و٦٠٠ ق.م، زخرف الآشوريون جدران القصور بألواح حجرية منحوتة، تُظهِر الاحتفالات الدينية أو الانتصارات العسكرية. وأصبحت هذه المنحوتات الحجرية هي الأكثر شيوعًا بين جميع الأعمال الفنية الآشورية كما كانت هناك بعض المنحوتات الأكثر جمالاً، والتي وُجِدت في قصر أشور بانيبال وهي مناظر من الصَيد. أما الشخوص الإنسانية في الفن الآشوري فلم يكن يظهر عليها أيّ انفعالات، إلا أن المنحوتات في قصر آشور بانيبال أظهرت بشكل حيوي ضراوة الأسود التي اصطيدت ومعاناتها.

وقد صُنِعَتْ المنحوتات الآشورية البارزة بمهارة، إلا أن النحّاتين الآشوريين لم يدركوا كيف يظهرون الأبعاد والأعماق في منحوتاتهم. فباستثناء تماثيل لثيران برؤوس بشرية وأسود، صنعت لحماية القصور، فهم لم يصنعوا إلا القليل من التماثيل الجيدة المجسمة.

وشاد الآشوريون أبنيتهم من الطوب الطيني غير المحروق عادة، بينما كانت الأسس والزخارف الجدارية تُصنَع من الحجارة وكانت جميع أبنيتهم ذوات سقوف مسطحة، حتى أن الكبيرة منها كانت مكونة من طابق واحد فقط. إلا أن بعضها كان يضم غرفًا ترتفع سقوفها إلى تسعة أمتار. وكانت القصور الفخمة وقاعات الاجتماعات والأروقة تمتد على مساحة فدادين وهكتارات عديدة، بينما ملأت المعابد العظيمة والقصور، إلى جانب الأبنية الأصغر حجمًا، مدن آشور ونينوى وكالّو.

وامتاز الحرفيون الآشوريون بزخرفة الأشياء الصغيرة المشغولة من

الحجارة والمعادن والخشب والعاج، كما استوردوا بعض القطع الفنية من فينيقيا ومصر.

نظام الحكم

وبالنسبة لنظام الحكم، فقد عُرف الملك الآشوري بـ ,الملك العظيم، الملك الشرعي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أركان الأرض الأربعة، ملك الملوك، الأمير غير المنافس والذي يمتد حكمه من البحر الأعلى حتى البحر الأدنى·. وكان الملك رئيسًا أعلى للإمبراطورية الآشورية والكاهن الأكبر للإله آشور. وكان يقود الحملات العسكرية بشخصه إلى مختلف أجزاء الإمبراطورية لتِعود بالضرائب وبالمدفوعات الأخرى. وكان من العادة أن يقوم الابن الأكبر للملك وولّي عهده بتصريف الشؤون الإدارية في البلاد متخذًا من قصر الإدارة سكنًا له.

وتمتع سكان بعض المدن القديمة، مثل آشور ونينوى، ببعض الامتيازات، بما فيها الضرائب المخفضة والإعفاء من الخدمة العسكرية، بينما كان على الإقطاعيين أن يدفعوا الضرائب وأن يمدوا الجيش بشبان من إقطاعياتهم للخدمة فيه. وكانت الإمبراطورية، خارج آشور نفسها، مقسمة إلى ولايات، يدير شؤون كل ولاية منها حاكم مسؤول عن الحكومة المركزية.

وتشير السجلات المكتوبة والمنحوتات إلى أن الآشوريين عاملوا الشعوب المغلوبة بقسوة، إلا أن المؤرخين غيرُ واثقين من أن الآشوريين تصرفوا فعلاً بمثل هذه الوحشية. فربما كانوا يتظاهرون بالوحشية لإرهاب الشعوب الأخرى ولإرغامها على الخضوع. ذلك أنهم سمحوا، في بعض

الأوقات، للشعوب المغلوبة بأن تُبْقِي على حكامها، إلا أنه في حالة قيام أيٍّ من هذه الشعوب بالتمرد أو بالامتناع عن دفع الضرائب، فكثيرًا ما كان الآشوريون يدمرون مدنهم ويُرحِّلون الناس إلى مناطق نائية من الإمبراطورية.

ويعرف العلماء القليل عن تاريخ الآشوريين الأوائل. فأقدم الوثائق المكتشفة، التي تعود إلى قبل سنة ٢٠٠٠ق.م.، تُظهر أن حاكمًا من مدينة أور، جنوب شرق العراق الحالي، حكم آشور. كما تُظهر وثائق تعود إلى فترة لاحقة أن الآشوريين كانوا يتاجرون بكثافة في الأناضول (تركيا الآن).

وفي عام ١٨١٣ق.م نصّب شمشي أدد، وهو زعيم صحراوي للأموريين، نفسه سيدًا لآشور، ووسع من مدى سلطة آشور وحدودها إلا أن آشور وقعت تحت سيطرة البابليين بعد موته.

ولم تُكتشف أية مدوَّنات تعود لمئات السنين التالية. إلا أن المؤرخين يعتقدون أن آشور، خلال جزء من هذه الحقبة، كانت تحت حكم مملكة ميتاني التي تقع في شمال سوريا. وتُظْهِر المدوّنات أن آشور عادت دولة مستقلة في أواسط عقود سنة ١٣٠٠ق.م.

و تمتعت آشور بفترات وجيزة من التوسع في القرنين ١٣، ١٢ق.م.، وذلك قبل أن تبني إمبراطوريتها في القرن التاسع قبل الميلاد. وقد سيطر شلمنصّر الثالث (حكم من ٨٥٨ – ٨٢٤ ق.م.) على طرق التجارة في منطقة البحر الأبيض المتوسط، كما افتتح تغلات بلسر الثالث (حكم من ٧٤٤ – ٧٢٧ ق.م.) مناطق واسعة من سوريا وفلسطين وأصبح ملك بابل. وقد تعامل سنحاريب (حكم من ٧٠٤ – ٦٨١ ق.م.) بقسوة مع عدد من الانتفاضات التي قامت في الإمبراطورية، فأخمد ثورة بابل ودمّر المدينة نفسها

في أثناء ذلك، كما أخمد ثورات أخرى في سوريا وفلسطين، إلا أنه خسر حكم القدس في يهوذا. وسنحاريب هو الذي أسس نينوى وجعلها عاصمة كما جعل منها مدينة عظيمة. أما خليفته أسرحدون (حكم من ٦٨٠ إلى ٦٦٩ ق.م.) فقد جعل مصر تابعة لإمبراطوريته.

وبدأت آشور تضعف بعد منتصف القرن السابع قبل الميلاد. وقد وضعت الهجمات التي تعرضت لها من جانب الماديين والبابليين في سنتي ٦١٤ و٦١٢ق.م. نهاية لهذه الإمبراطورية.

وترتبط آشور القديمة بأسطورة الملكة "سميراميس" هذه الأسطورة التي خلبت ألباب البشرية، وفرضت حضورها في الأدب وفي التاريخ وفي الرسم وفي الموسيقى وفي السينما وفي المسرح.

لقد خلبت حكاية هذه الملكة، ألباب الناس في العالم اجمع على مر القرون، منذ أكثر من ألفي عام. فهي تشتهر بالجمال والقوة والحكمة، وبقدرتها الفائقة على إدارة الدولة وقيادة الحروب والتوسع بالفتوحات وروح الإصلاح والتعمير. وتنسب لها الأساطير بأنها هي التي شيدت بابل بحدائقها المعلقة، وأنشأت العديد من المدن وغزت مصر وجزءا كبيرا من آسيا والحبشة، وحاربت الميديين، وأخيرا قادت هجوما فاشلا على الهند، كاد يؤدي بحياتها. وهناك كتب وروايات لا تعد ولا يحصى صدرت عن الملكة سميراميس.

ولم تبخل عليها هوليود بأكبر أفلامها. ويحمل اسم " سميراميس " في جميع أنحاء العالم وفي جميع اللغات ما لا يحصى من المراكز السياحية والفنادق ودور التجميل والأنوثة والمتعة.

ويصفها الكاتب "ويفي ميليفل" في ثنايا روايته "ساركادون.. أسطورة الملكة العظيمة": "كانت فائقة الجمال، لا شك في الأمر، ذلك الجمال الذي تعجز الكلمات عن وصفه، انه الجمال المنتصر، ليس بأقل من الجمال الذي يذعن له الآخرون رغما عن إرادتهم".

كانت هذه الملكة تشتهر بان لها قوة خارقة كبطلة بابلية إذ تكاد ان تكون الرديف الأنثوي للبطل الذكوري لـ كلكامش بطل الملحمة الشهيرة التي تحمل اسمه.

كانت تمتلك عيون ساطعة رغم كثافة رموشها ونظراتها الودودة، لكن يشع منها وهج عبقرية القائد، الذي يستطيع أن يأمر جيشا ويؤسس إمبراطورية.. شخصيتها الخلابة المهيمنة جعلتها تكتسب شهرة ذائعة الصيت حتى أن "مارجريت" ملكة الدانمارك والسويد والنرويج (١٣٥٣-١٤١٢) وكذلك "كاترين الثانية" قيصرة روسيا (١٧٢٩-١٧٩٦) صنفتا كليهما على أنهما "سميراميس" أوربا.

وحسب الأسطورة فإن اسم سميراميس ويعني "الحمامة"، أُطلق عليها لأن الحمائم احتضنتها عند مولدها ورعتها وأشرفت على غذائها.

وتحكي الأسطورة أنه أنسابت سيول عارمة ذات يوم على منابع نهر الفرات ففاض النهر، وتدفقت مياهه، وخرجت الأسماك تستلقي على الشاطئ، وكانت بين تلك الأسماك سمكتان كبيرتان حيث سبحت السمكتان إلى وسط النهر وبدأتا بدفع بيضة كبيرة طافية على السطح إلى ضفة الفرات، وإذ بحمامة بيضاء كبيرة تهبط من السماء وتحتضن البيضة بعيدا عن مجرى النهر.

ورقدت الحمامة على "البيضة" حتى فقست، ومن داخل البيضة خرجت طفلة رائعة الجمال من حولها أسراب من الحمام ترف بعضها عليها بأجنحتها لترد عنها حر النهار وبرد الليل.

ثم بدأت الحمائم تبحث عن غذاء للطفلة، فاهتدت إلى مكان يضع فيه الرعاة ما يصنعون من جبن، وحليب، فتأخذ الحمائم منها بمقدار ما تحمل مناقيرها، لتقدمه للطفلة التي عاشت مع حمائمها سعيدة لا تعرف أبداً طعم الشقاء.

وقد تنبه الرعاة إلى جبنهم المنقور وحليبهم المنقوص، فقرروا ترك أحدهم ليراقب المكان وشهد الراعي الحمائم وهي تحط حول الجبن وتلتقط قطعه الصغيرة، وتملأ مناقيرها بالحليب وتطير به إلى مكان ليس ببعيد، فأخبر الراعي رفاقه فتبعوا الحمائم حتى وصلوا إلى حيث صبية ذات جمال رائع، فأخذوها إلى خيامهم، واتفقوا على أن يبيعوها في سوق "نينوى" العظيم.

وفي صبيحة ذات يوم حملوا الفتاة وقد أطلقوا عليها اسم "سميراميس"، إلى سوق نينوى. واتفق أن كان ذلك اليوم يوم موسم للزواج الذي يقام كل عام، حيث تجتمع في السوق الكبير جموع الشبان والشابات قادمة من كل نواحي المملكة، لينتقي كل شاب عروساً شابة، أو ينتقي صبية يحملها إلى داره فيربيها إلى أن تبلغ سن الزواج فيتزوجها أو يقدمها عروساً لأحد أبنائه. كانت ساحة سوق "نينوى" تغص بالشيوخ والشبان. دخل الرعاة بالصبية الصغيرة الحسناء إلى حيث يعرضونها للبيع. جلس الرعاة مع الصبية في أول الصف، فشاهدهم "سيما" ناظر مرابط خيول الملك، وكان عقيماً لا ولد له فهفا قلبه إلى سميراميس، ورغب في تبنيها.

ودعا "سيما" الرعاة وساومهم على ثمنها، وعندما تمت الصفقة، عاد بها إلى منزله. ما أن رأت زوجته هذه الصبية ذات الجمال الرائع حتى فرحت فرحاً غامراً واعتنت بها عنايتها بابنتها، وظلت ترعاها حتى كبرت واستدارت وبرزت أنوثتها كأجمل ما تكون النساء!

و في يوم ما كان أونس مستشار للملك، يتفقد الجمهور المحتشد بأمر من الملك وإذا بعينه تقع على (سميراميس وهي الآن في عمر مناسب للزواج، فيصعق مذهولاً من جمالها وبراءتها. قام بأخذها معه إلى نينوى وتزوجها هناك، وصار لهما طفلين ربما توأمين هما (هيفاتة) و(هيداسغة). يبدوا أنهما كانوا سعداء، أما سميراميس فكانت فائقة الذكاء حيث كانت تقدم لزوجها النصح والمشورة في الأمور الخطيرة فأصبح ناجحا في كل مساعيه. أثناء ذلك كان ملك نينوى ينضم حملة عسكرية ضد الجارة باكتريا، فأعد جيشا ضخما لهذا الغرض لأنه كان يدرك صعوبة الاستيلاء عليها.

بعد الهجوم الأول استطاع أن يسيطر على البلد برمته ما عدا العاصمة " باكترا " التي صمدت. شعر الملك بالحاجة إلى أونس ولذا أرسل في طلبه، لكن أونس لا يريد مفارقة زوجته الحبيبة فسألها أن كانت ترغب في مرافقته، ففعلت.

هناك بعد أن تابعت سميراميس سير المعارك ودرستها بعناية وضعت العديد من الملاحظات عن الطريقة التي يدار بها الحصار. فبما أن القتال كان يجري في السهل فقط وان كل من المدافعين والمهاجمين لم يعروا القلعة أهمية، طلبت سميراميس إرسال مجموعة من الجنود المدربين على القتال في الجبال، إلى المرتفع الشاهق الذي كان يحمي الموقع. ففعلوا ذلك ملتفين حول خاصرة

العدو المدافع وهكذا وجد الأعداء أنفسهم محاصرين ولا خيار لهم سوى الاستسلام.

في ثنايا هذه الأحداث صار الملك "نينوس" شديد الإعجاب بـ سميراميس لما أبدته من شجاعة ومهارة لحسم المعركة. منذ اللحظة اخذ الملك يتمعن في وجهها الساحر وجمالها المدهش، فأدرك أن قلبه غير قادر على مقاومة سحرها، ولذا طلب منها أن تكون زوجته وملكته. ثم عرض على أونس أن يأخذ ابنته بدلا عنها، إلا أن أونس رفض ذلك. مما حدا بالملك أن يهدده بقلع عينيه، وتحت وطأة الخوف واليأس استسلم أونس لمطلب الملك، غير أنه أنهى حياته بعد فترة وجيزة من زواجها من الملك. هكذا افلح نينوس بالزواج من (سميراميس) وصار لهم طفلا أسمياه "نيناس". بعد موت الملك اعتلت العرش كملكة لنينوى عاصمة بلاد النهرين.

وحسب الأسطورة الرائجة، قد دام حكمها ٤٢ عاما، لكن الواقع أنها كانت تحكم سوية مع زوجها الملك، فقط السنوات الخمس الأخيرة حكمت بمفردها بعد وفاة زوجها.

وقد بدأت حكمها ببناء ضريح فخم في نينوى تمجيدا لزوجها الملك (نينوس). وتنسب إليها أسطورة الشعبية بأنها هي التي بنت مدينة "بابل"، حيث شرعت بعزيمة لا تنثني بحملة واسعة النطاق ببناء مدينة لنفسها ليس بعيدا عن نينوى، هذه المدينة الجديدة هي بابل. وقد استخدمت لهذا الغرض أكثر من مليوني عامل طبقا لما يقوله المؤرخ الإغريقي "ديودروس"، جالبة إياهم من كل أرجاء الإمبراطورية المترامية الأطراف لانجاز هذه المهمة الضخمة. أن محيط السور وحده كان حوالي ٦٦ كيلومترا طولا، أما عرضه

فقد كان بإمكان ٦ عربات تجرها خيول بالمرور فوقه وهي تسير جنبا إلى جنب، وارتفاعه حوالي ١٠٠ متر. تم تشييد ٢٥٠ برج لحماية المدينة، وأقيم كذلك جسر بطول ٩٠٠ متر على نهر الفرات الذي كان يمر وسط المدينة. وقد أقيمت عند نهاية كل جسر قلعة محصنة كانت الملكة تستخدمها كدار استراحة، هذه القلاع كانت متصلة بعضها ببعض عبر ممرات سرية تحت النهر. وفي هذه لفترة نفسها بنيت الحدائق المعلقة الشهيرة.

ثم أخذت جيوش العراقيين في السنوات اللاحقة بالتوغل بعيدا في آسيا، وهناك أقامت الملكة متنزه فسيح مقابل جبل باجستان، وعدد آخر من النوافير المزخرفة عند ايكافاتانا. وقد فاقت شهرتها أي من النساء المقاتلات في تلك العصور. يقال أن (سميراميس) كانت مسؤولة عن نشؤ العديد من مدن العالم القديمة والتي أقيمت على نهري دجلة والفرات، وكذلك عن إقامة العديد من أجمل وأروع الأضرحة الفريدة والمواقع النادرة الأخرى في كل آسيا. أما عسكريا فقد استولت على ميديا وأخضعت مصر والجزء الأكبر من الحبشة، وكذلك قامت بحملة لإخضاع الهند، فأنشأت جيشا جرارا لهذا الغرض ونجحت في عبور نهر السند، لكن جيشها جوبه بأعداد هائلة من الفيلة المدربة مما افزعوا الخيل والجند، وانسحب جيشها فارا وتعرضت هي نفسها لطعنة كادت تودي بحياتها، وتمكنت بعد جهد شاق من عبور النهر، وهنا أمرت بتدمير الجسر الذي أشادته كي لا يستطيع العدو من العبور عليه لملاحقتها.

ومن الواضح أن معظم هذه الانجازات قد نسبتها خطأ الأسطورة إلى سميراميس، فليس هي التي بنيت بابل، ثم أن الملك العراقي "نبوخذنصر"

هو الذي أشاد هذه الحدائق تلبية لرغبة زوجته الميدية.

ويبدو أن اسم سميراميس هو التحرف الإغريقي للاسم العراقي "سمورامات" وهي ملكة حقيقية مقدسة، وهي أم الملك الآشوري (اداد – نيناري الثالث) الذي حكم بين (٨١٠– ٧٨٣ قبل الميلاد) وزوجة الملك شمشي – اداد الخامس، حكم بين (٨٢٣ – ٨١١ قبل الميلاد)، وهو بدوره ابن شلمنصر الثالث وقد حكم بين (٨٥٩ – ٨٢٤ قبل الميلاد)، وقد تميز حكمها بالغلاظة خاصة بين ٨١٠– ٨٠٥ قبل الميلاد.

ومن المؤكد أن هذه الحكاية الأسطورية مقتبسة من شخصية حقيقية هي الملكة البابلية " سمورات ". بعد ذلك بقرون طويلة حرف الإغريق هذا الاسم إلى سميراميس. وهي أصلها من منطقة بابل، وتزوجت من ملك نينوى " شمسو حدد الخامس " (٨٢٣–٨١١ ق.م). بعد ان توفى زوجها لم يكن يبلغ ابنها ولي العهد (حدد نيراني) (٨١١–٧٨٣ق م) سن الرشد، فاستلمت زوجته "سميرامات" المملكة والحكم.

وأصبحت وصية على عرش ولدها لمدة ٥ سنوات حتى بلغ سن الرشد. صحيح أنها استلمت الحكم رسميا لفترة خمسة سنوات، إلا أنها كانت تشارك بالحكم منذ أيام زوجها وكذلك مع ابنها. أن شخصيتها القوية وذكائها الحاد وجمالها الأخاذ جعلها تفرض سطوتها طيلة وتمسك بتلابيب دولة بلاد النهرين طيلة عشرات السنين، وقد عثر على نقش حجري تذكاري في مدينة (آشور) وآخر في (كالح) تصور فيه على انها الملكة التي حكمت خلفا لزوجها المتوفى. لم تكتف هذه المرأة العظيمة بالسلطة السياسية وإدارة شؤون البلاد بل تعدتها إلى التأثير في الحياة الدينية والفكرية والاجتماعي.

فهي رغم أنها تشارك سكان آشور بالحضارة العراقية المشتركة، إلا أن أصلها الجنوبي منحها بعض الخصوصيات المذهبية والثقافية حيث تمكنت أن تشيع مثل هذه المؤثرات البابلية على طريقة الحكم وعلى الكهنوت الآشوري وعلى عموم الحياة في نينوى. فأضفت نوعا من الرقة والروحانية الجنوبية على المذهب الآشوري الذي كان يتسم أكثر بنوعا من تقديس الفحولة المتمثل بالإله آشور وكذلك الميل إلى منطق القوة الحرب. بل حتى أنها نجحت بابراز ادوار آلهة كانت ثانوية عند الآشوريين مثل اله الحكمة(نبو). لقد ملكت (سمورامات) كالملوك العظام، حيث أقامت مسلة لتخلد ذكرها في ساحة المسلات في معبد آشور، وقد سجل على هذه المسلة العبارة التالية: ((مسلة سمورامات ملكة سيد القصر – شمس حدد ملك الكون ملك آشور والد حدد نيراني ملك الكون ملك آشور وكنة شلما نصر ملك الجهات الأربعة.

وفي كتاب يحمل عنوان: "سميراميس: ملكة آشور وبابل" للكاتب والباحث الإيطالي جيوفاني بيتيناتو، يقول المؤلف إن المعلومات المتاحة بالعربية عن سمُورامات أو سميراميس مصدرها الأساطير الإغريقية التي قدمتها على أنها شخصية خارقة تصنع المستحيلات. وبالتالي فإن ما كتب عنها يحمل صفة غير واقعية، لذلك تأتي ترجمة هذا الكتاب لتعطي صورة حقيقية عن تاريخ هذه المرأة المتميزة التي أدت دوراً بارزاً في تاريخ بابل وآشور في أواخر القرن التاسع قبل الميلاد.

بعد سقوط زوجها شمشي أدد الخامس في معركة ضد بابل، تسلمت سميراميس السلطة في آشور، عوضاً عن ابنها القاصر أدد نيراري الثالث، وحكمت خمس سنوات (٨١١– ٨٠٦ ق.م)، تمكنت خلالها من إدارة دفة

الحكم ببراعة نادرة، والحفاظ على النفوذ الآشوري. وسلمت السلطة لابنها بعد بلوغه السن التي مكنته من اعتلاء العرش الآشوري.

تؤكد الدراسة أن سميراميس كانت سورية من أصل آرامي، ونظراً إلى نجاحها في إدارة شؤون الدولة الآشورية وتنفيذ مشاريع عمرانية مختلفة، ذاعت شهرتها في معظم أرجاء العالم القديم، وحاول كل شعب الادعاء أنها تنتمي إليه. فالبابليون قالوا إنها بابلية، والإيرانيون قالوا إنها إيرانية، والأرمن نسبوها إليهم.

ويبرز المؤلف محاولة سميراميس في المجال الديني إدخال عبادة الإله البابلي نابو إلى بلاد آشور، وتشييد بعض المعابد له، في محاولة منها لإيجاد تقارب روحي بين الآشوريين والبابليين، لكن هذه المحاولة فشلت، وبقيت روح العداء هي السائدة بين الشعبين.

يفيد الباحث بأن سميراميس سحرت عدداً كبيراً من الناس، بسبب تلك الصفات التي لخّصها المؤرخ أولمستد بقوله: "الأجمل والأقسى والأقوى والأحيل بين ملكات الشرق". ولهذا دارت حولها أحاديث كثيرة ونُسبت إليها أعمال مدعاة للفخر كالحروب وتأسيس المدن، وبناء بابل المدينة الشهيرة بحدائقها المعلقة. وهذا الادعاء الأخير جعل باحثي العصور القديمة ينقسمون إلى قسمين، قسم يرى أن سميراميس هي بانية هذه المنشأة الرائعة، وآخر يعتبر أن مثل هذا الادعاء غير صحيح تاريخياً، وأن الحدائق المعلقة الرائعة هي من عمل حكام آخرين. ويضيف الكاتب أنه نُسبت أيضاً لسميراميس أعمال سيئة مثل خصي الأطفال واللواط.

ويروي المؤلف أن موت الزوج شمشي أدد المبكر تحت أسوار بابل،

وعمر الابن الصغير أدد نيراري ولّدا فراغاً مفاجئاً في السلطة في بلاد آشور، فحلّت سمورامات مكان زوجها القتيل بسرعة، وقضت وهي على رأس الجيش الآشوري، على التمرد البابلي. وقد أقنع هذا التصرف السريع والسديد المجتمع الآشوري، المعتمد كلياً على الرجل، بأن سمورامات قادرة على قيادة البلاد في هذه الساعة الصعبة، فمنحها كبار رجالات الدولة، خصوصاً نائب القائد العام، والمفتش الكبير، وكبير السقاة، ومنادي القصر، ثقتهم ودعمهم.

ويشير إلى أن حكمة هذه المرأة، التي وصلت بمحض الصدفة إلى أكثر عرش رهبةً في الشرق القديم، تظهر في حذرها الذي مارسته في السلطة، فقد تخلت عن إصلاحات محرجة قد تثير الدوائر التقليدية، فمارست نفوذها بهدوء.

يذكر المؤلف أن تأثير سمورامات لم يتوقف مع انتهاء مدة حكمها، بل استمرت في التدخل بشؤون الدولة حتى بعد أن أصبح أدد نيراري ملكاً. ولأنها هي من عيّن مجالس الكبار في الإمبراطورية، وحكام المقاطعات، فإن سياستها استمرت في التأثير لمدة طويلة، وبقي ظلها على الابن حتى وفاتها عام ٧٨٥ق.م.

الحضارة الفينيقية

ترجع نشأة المدن الفينيقية إلى آلاف السنين على السواحل الشرقية للبحر المتوسط (ساحل سوريا الكبرى) ودامت هذه المدن ما يقارب من خمسة وعشرين قرناً.

بلغت فينيقيا والمدن التابعة لها ذروة مجدها في القرن الثالث عشر إذ كانت اتصالاتها البحرية تشمل مناطق العالم القديم بأكمله وبلغت تجارتها درجة عظيمة من الازدهار والتوسع. تميز الفينيقيون بإشعاعهم الواسع على العالم القديم بفضل أبجديتهم المتطورة التي كانت الأكثر تطوراً في عصرها حيث تأثرت بها المناطق المجاورة

فما هي خصائص الحضارة الفينيقية وما هي أبرز مظاهر إشعاعها؟

تقع فينيقيا على الواجهة الشرقية للبحر المتوسط ما بين آسيا الصغرى شمالا وفلسطين جنوبا فهي تشكل شريطا ساحليا ضيقا يمتد على حوالي ٢٠٠ كلم طولا من الشمال إلى الجنوب ومابين ٢٠ و٣٠ كلم عرضا أي ما يوافق لبنان حاليا تقريبا، تهيمن علية جبال لبنان شرقا التي تنحدر تدريجيا نحو الغرب مفضية إلى سهول ساحلية ضيقة ومتقطعة تتعاقب فيها نتوءات وصخرية وخلجانا مكونة موانى طبيعية ملائمة للأنشطة البحرية.

ينجر عن هذه الخصائص الطبيعية، ضيق المساحات الزراعية وصعوبة التنقل البري وهو ما نجم عنه اهتمام الفينيقيين بالتجارة البحرية واستقلال المدن الفينيقية عن بعضها البعض وانتشار ما يعرف بنظام المدينة الدولة.

شكلت فينيقيا منطقة عبور وممرا طبيعيا بين الفضاءات الحضارية لمنطقة الشرق القديم مثل مصر وبلاد الرافدين وكذلك بلاد الإغريق وهو ما جعلها محل أطماع هذه القوى المجاورة

الفينيقيون جزء من الكنعانيين الساميين

تعود أولى الإشارة إلى الفينيقيين في النصوص القديمة في الكتابات المصرية الفرعونية التي تطق على الفينيقيين في منتصف الألف الثالث قبل الميلاد اسم الأسرى الشرقيين والحطابين نظراً لوجود غابات الأرز بمناطقهم وما توفره لهم من خشب يستخدمونه في التجارة مع مصر وغيرها..

يشكل الفينيقيون جزءا من الكنعانيين الذين استقروا في بلاد الشام الواقعة بين البحر المتوسط وبلاد الرافدين وهم قبائل هاجرت من شبه الجزيرة العربية في منتصف الألف الثالثة قبل الميلاد. ويؤكد الجغرافي الروماني (سترابو) Strabo أيضا أن الفينيقيين انطلقوا من البحرين (الساحل الشرقي لجزيرة العرب) نحو العراق سالكين طريق الهلال الخصيب إلى الساحل الشامي، حيث بنوا مدنهم وانشئوا حضاراتهم الرفيعة التي نشروها في البحر المتوسط بأسره. ويدعم هذا الرأي أيضا ما حصل بعد اكتشاف القبور القديمة التي عثر عليها رجال الآثار في الجزيرة الكبيرة (المنامة) والتي تشبه إلى حد كبير النواويس الفينيقية.

أطلق عليهم اليونان اسم الفينيقيون "Pheonix" الذي يحمل معنى الأرجوان نسبة إلى اكتشافهم للصباغ الأرجواني.وأطلقوا على بلادهم اسم فوينيكة أي بلاد الأرجوان.اشتملت فينيقيا على المدن الواقعة على الساحل السوري الممتد من أقصى شمال سوريا (خليج أيسوس) حتى جبل الكرمل جنوبا مثل صور، صيدون (صيدا)، بيروت، جبيل، أوغاريت، عكا...

كانت الحضارة الفينيقية عبارة عن مجموعة من المدن لها نفس التكوين والعادات والتقاليد وكانت مرتبطة ببعضها فكريا وعرقيا.

رغم شعور الفينيقيين بانتمائهم إلى الكنعانيين والشعوب السامية عموما عاشت المدن الفينيقية مستقلة عن بعضها البعض تتعاون أحيانا وتتنافس أحيانا أخرى وكان لكل منها مؤسساتها السياسية وآلهتها وعاداتها وتقاليدها.

الأطوار التاريخية والمؤسسات السياسية

(1) الأطوار التاريخية

يمتد تاريخ فيقيا منمن ٣٠٠٠ ق م إلى ٣٣٣ ق م تاريخ سقوط مدينة صور على يد الاسكندر المقدوني وقد عرف خلالهذه الفترة تاطويلة حقبات متقطعة من الخضوع والاستقلال ولعل ذلك يعود على عجز فينيقيا عدديا وعسكريا على مقاومة دول كبرى كالمصريين والآشوريين والفرس:

أ- هيمنة القوى العظمى على فينيقيا

العلاقة بين مصر وفينيقيا

اتسعت دائرة العلاقات الفينيقية المصرية منذ عصر الإمبراطورية القديمة (٢٧٠٠-٢٢٠٠ ق م) فقد كانت السفن المصرية ترد إلى جبيل التي أصبحت

بمثابة محطة عبور للتجارة والحضارة المصرية إلى العالم الخارجي وقد ذكرت النصوص المصرية عدة مرات مدينة جبيل وكان أهم أثر حضاري يؤكد الحضور المصري في مدينة جبيل في هذه الفترة هو هو المعبد الذي عرف بالمعبد المصري وهو يؤكد وجود جالية مصرية ترعى مصالح الدولة المصرية في فينيقياو من أهم أثار هذا المعبد اللوحة التي تذكر اسم الآلهة المصرية حاتور (الآلهة البقرة) والتي كان يطلق عليها سيدة جبيل كما اتخذت بعض الآلهة الفينيقية مثل الغلهة بعلت رموز الآلهة المصرية

منذ غزو الهكسوس لمصر في القرن السادس عشر قبل الميلاد أيقن المصريون العمق الاستراتيجي والاقتصادي التي تمثله فينيقيا للدولة المصرية لذا بعد زوال الهكسوس عاد النفوذ المصري للمنطقة بأكثر قوة من أجل درء الغزوات الخارجية القادمة من آسيا واستغلالها كمعبر في اتجاه أسواق الشرق القديم وكان المصريون يأخذون أبناء ملوك فينيقيا كرهائن ويربونهم على الطريقة المصرية ضمانا لولائهم

خفت وطاة الحضور المصري إبان ثورة إخناتون الدينية إذ ضعف النفوذ المصري في الخارج ثم استعادت مصر سلطتها على فينيقيا من جديد في عهد رمسيس الثاني الذي انتصر على الحثيين في وصدهم عن فينيقيا.

سيطرة الحثيين

في الوقت الذي انشغلت فيه مصر بثورتها الدينة أيام إخناتون ١٣٧٠-١٣٥٢ ق م تفاقم خطر الحثيين الزاحفين من آسيا الصغرى واستمر الأمر كذلك إلى تاريخ الحملة التي قام بها رمسيس الثاني (١٢٩٧-١٢٣٥ ق م) الذي تمكن من على نفوذ الحثيين في المنطقة

ب. استقلال فينيقيا

مكن غزو شعوب البحر(قبائل قدمت من جزيرة كريت وجزر بحر إيجة) لمصر والسواحل الكنعانية والفينيقية في القرن الثاني عشر واستقرار الفلستيين بفلسطين من استقلال فينيقيا، فقد زال الخطر المصري نهائيا وازدهرت المدن الفينيقية بل تذكر المصادر أن ملك جبيل تدرأ على احتقار وسجن موفدي الفراعنة إليه

مرت هذه الحقبة بطورين

مرحلة التوغل التجاري في المتوسط:

تميزت هذه المرحلة بتوغل الفينيقين في البحر المتوسط وإنشاء المدن المصارف مثل حضرموت (سوسة) ولكش بالمغرب الأقصى وجديرة (قادس) بجنوب اسبانيا وقد مكنت هذه المحطات التجارية من غقامة جسر تجاري وحضاري يربط بين حوضي المتوسط إي بين فينيقيا شرقا وأعمدة هرقل غربا (جبل طارق).

مكنت السيطرة على التجارة البحرية الفنيقيين منجمع ثروات طائلة أثارت أطماع القوى المجاورة مثل الآشوريين

مرحلة بناء المستوطنات ٥٣٩.٨٢٠ م

زال الخطر المصري نهائيا عن فينيقيا فما لبثت أن أصبح يتهددها الخطر الآشوري القادم من بلاد الرافدين وشتدت وطأة الضغط الآشوري في عهد آشور ناصربال إ. ففي ٨٧٦ هام صور وجبيل وأأرادوس فدفعت له الجزية ومثله فعل خلفاوه ، فنشكت الثورات ضد الآشوريين تتزعمها صور ثم

تابع الكلدانيون سياسة الآشوريين تجاه المدن الفينيقية فثارت مجددا بقيادة صور. أما في البحر المتوسط فقد تنامى الخطر الإغريقي في غربي التوسط إذ سعت المدن الإغريقية الانتشار والتوسع على حساب المصالح الفينيقية فأسست مستوطنات إغريقية في جنوب إيطاليا وصقلية وجنوب فرنسا.

لمواجهة هذه التحديات في الشرق وفي الغرب توخي الفينيقيون سياسة عمادها بعث المستوطنات وهي خلافا للمراكز التجارية السابقة مدن استقرت بها جاليات فينيقية نهائيا وكان الفينيقيون يهدفون من وراء ذلك إلى ضمان سلامة الطريق المؤدية إلى الحوض الغربي للمتوسط وبلاد الإيبار وهي تمكنهم من جهة أخرى من ضمان سلامة ثرواتهم بعيد عن نفوذ الآشوريين ومنة أشهر هذه المستوطنات قرطاج التي تأسست سنة ٨١٤ ق م.

ج. مرحلة النفوذ الفارسي:

هزم الفرس دولة الكلدانيين واحتلوا بلاد مابين الرافدين والبلد الخاضعة لها ومن ذلك منطقة فينيقيا

لم يكن الحضور الفارسي حضورا مباشرا بل عن طريق مندوبين يقيمون بالمدن الفينيقية ويؤمنون المصالح الفارسية وخاصة دفع الضرائب ويبدو أن المدن الفينيقية انسجمت مع هذا الوضع والدليل التعاون الطي أبداه الفينيقيون تجاه الفرس والدور الذي قاموا به في الحروب الميدية ضد الإغريق في عهد داريوس الأول (٥٢١-٤٨٦ ق م) ثم في عهد كسركسيس (٤٨٥-٤٦٥ ق م) وهي حروب تخدم مصالح الفينيقيين إذ تضعف الإغريق وتجد من منافستهم في مجال التجارة المتوسطية.

في أن العلاقة بين المدن الفينيقية والفرس لم تكن تخلو من توترات وخاصة في القرن الرابع قبل الميلاد وقد كانت نهاية الوجود الفارسي على يد الإسكندر المقدوني سنة٣٣٣ ق م إثر معركة الإيسوس وهزيمة داريوس الثالث

(2) المؤسسات السياسية

فرضت الطبيعة على فينيقيا وضعا سياسيا خاصا ذلك أن ضيق المجال وامتداد الشريط الساحلي فرض امتدادا على طول السواحل كما ان التضاريس الوعرة عقّدت عملية التنقل برا ومنعت قيام وحدة سياسية رغم الوحدة الثقافية لشعب فينيقيا فكانت بلاد فينيقيا عبارة عن مجموعة من المدن المتابعة على طول الساحل وهي جبيل، صيدا، صور، صيدون، بيروت، أوغاريت..

كانت كل مدينة من المدن الفينيقية وخاصة الكبرى منها تشكل مملكة مستقلة يدير شؤونها ملك يستمد سلطانه من الآلهة وكان حكما وراثيا ولكنه لم يكن حكما مطلقا بل كان " ملكيا دستوريا "ذلك أن قرارات الملك يجب أن تقترن بموافقة مجلس الشيوخ.

ينحدر الملك في أي المدن الفينيقية من العائلات العريقة التي تحظى بالاحترام والتي تتمتع بمسحة من القداسة وهذا الوضع يفض على الملك مسؤوليات ضخمة عليه أن يضطلع بها على الوجه الأكمل فهو مسؤول عن حماية المدينة و ويسهر على حفظ الأمن وتحقيق العدل وهو مسؤول أمام الآلهة ومجلس الشيوخ فإذا أخل بواجباته يتم عزله.

يستعين في إدارة شؤون الدولة بمتصرفين وقضاة وموظفين وكتبة، وقد

كان الهرم الاجتماعي الفينيقي مكوناً من ثلاث طبقات، في الأولى أول الهرم «الملك» أو ما كان يعرف بحاكم المدينة، وقد كان يظن في أول الأمر بأن حكام المدن الفينيقية هم من سلالة الآلهة، ولذلك يجب طاعتهم وتقديرهم، وتمتع بهذه الصفة حكام المدن الفينيقية الأقوياء مثل «الملك حيرام» الذي كان له الحكم المطلق خلال القرن العاشر قبل الميلاد. يلي طبقة الحكام في الترتيب طبقة الكهنة، وعلى رأسهم كاهن معبد الإله ملقارت في مدينة صور، ثم مجلس الأثرياء الأرستقراطيين، ثم مجلس عامة الشعب الذي كان يلجأ إليه عند نشوب الخلافات السياسية التي تدب بين الطبقات، وذلك بغية تنفيذ مآربها باكتساب أعضاء هذا المجلس إلى جانبها.

الخصوصيات الحضارية

١- الفينيقيون مخترعو الأبجدية

يعد اختراع الأبجدية من أعظم ما قدمته الحضارة الفينيقية للبشرية ويجتمع معظم علماء اللغات والآثار على أن اختراع الأبجدية الأم، التي ولدت منها جميع أبجديات العالم مثل اليونانية واللاتينية والعربية والعبرية تم على أيدي الفينيقيين حيث وجد أقدم رقم (لوح فخاري) مكتوب عليه الأبجدية في أوغاريت

نسب المؤرخ اليوناني هيرودوتس الاختراع إلى قدموس الفينيقي الصوري. ولما انتقل قدموس إلى طيبة نشرها بين شعوب أوروبا. وهناك آثار في مدينة طيبة عبارة عن نقش لصورة قدموس يعلم ابناءه الحروف الأبجدية. ومن أقدم الكتابات التي كتبت بالأبجدية الفينيقية منقوشات قبر أحيرام ملك

جبيل أو "بيبلوس". يذكر أنه وجد آثار لنصوص فينيقية في كل من مصر وقبرص وفي أكثرية حوض البحر المتوسط وكانت تكتب اللغة الفينيقية من اليمين إلى اليسار.

تأثّر الفينيقيون بالكتابات التي سبقت أبجديتهم وهي الكتابة الهيروغليفية التي اعتمدها المصريون والكتابة المسمارية التي اعتمدها سكان بلاد ما بين النهرين وكلتاهما معقّدتان. فبَسّط الفينيقيون في جبيل الكتابة الهيروغليفية بأبجديةٍ مبتكرةٍ، رموزها سهلة الكتابة، كما بَسّط الفينيقيون في أوغاريت الكتابة المسمارية وتجاوزوا بذلك مرحلة الكتابة التصويرية ثم المقطعية إلى مرحلة الكتابة الأبجدية أين يعبر الحرف عن أبسط الأصوات وقد حصروا كل الأصوات في عدد قليل من الأحرف فاشتملت أبجديتهم على اثنين وعشرين حرفا.

لقد كتب الفينيقيون هذه الحروف من اليمين إلى الشمال (مثل العربية) ونشروها في جميع بلاد العالم شرقا وغربا.

وقد فتح اكتشاف الأبجدية أبعاد' جديدة أمام شعوب الشرق القديم وبلدان البحر المتوسط إذ ساهم في تبسيط المعاملات التجارية كما اتسع نطاق التبادل الفكري والتلاقح الحضاري

٢. انتشار اللغة الفينيقية

انتشرت اللغة الفينيقية على طوال الساحل الشرقي للمتوسط وامتدت إلى أطراف من جنوب شرق آسيا الصغرى والى قبرص (منذ بداية الألف الأول ق.م) والجزر اليونانية مثل رودس وحتى إلى اليابسة اليونانية (اثنا وغيرها من المدن الإغريقية) وذلك خلال القرون الثالث – الأول ق.م. وكان التوسع الحقيقي حدث في بلاد المغرب، بعد تأسيس قرطاجة العام ٨١٤ ق.م، وبناء المستوطنات الفينيقية على سواحل وجزر البحر المتوسط. فقد استوطنوا جزر مالطا وصقلية وساردينيا (واستعملت اللغة الفينيقية لغاية القرن الثاني الميلادي في ساردينيا)، وسواحل المغرب واسبانيا، وعبروا أعمدة ملقرط التي اسماها الرومان فيما بعد أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وسكنوا ساحل المحيط الأطلسي أيضاً. وعرفت لغة المستوطنات الفينيقية (وعلى رأسها قرطاج) باللغة البونية، وبعد سقوط قرطاج سنة ١٤٦ ق.م. اصطلح على تسميتها باللغة البوينة الحديثة. واستمر تأثيرها لقرن بعد ذلك، فقد تحدثت شعوب المغرب بالبونية (بقيت هذه اللغة مستعملة في المملكتان النوميدية والموريتانية إلى حدود القرن الثاني الميلادي)، ولئن تمكن الرومان من إجبار سكان المدن على الحديث باللاتينية، فانهم فشلوا في التأثير في سكان الأرياف الذين بقوا أوفياء إلى لغتهم القديمة

٣. لديانة الفينيقية

أخذ الفينيقيون عن جيرانهم معزم معتقداتهم وآلهتهم ويبدو أن المعتقدات الأسيوية القادمة من آسيا الصغرى قد سبقت مجيئ الساميين إلى شاطئ المتوسط ثم تلاها تأثير الديانات السومرية والسامية ثم داخلتها المعتقدات الإغريقية

أ. تعدد المجامع الإلهية

إن مصادر الدّيانة الفينيقية هي الكتابات التي وُجِدَت في المدن الفينيقية

والمتعلقة بأحداث ذات طابع دينيّ، وهذه الكتابات قليلة، لا تذكر سوى بعض أسماء الآلهة.

ورغم احتواءه عديد النقاط المشتركة فإن المشهد الديني الفينيقي لم يكن موحدا بل كان متعددا بحسب تعدد المدن وتنوع ظروفها السياسية وتجلت هذه الخصوصيات من خلال مجمع الآلهة لكل مدينة.إذ لكل مدينة آلهتها وطقوسها الدينية الخاصة.فقد مجمع الآلهة في مدينة بيبلوس يهيمن عليه كبير الآلهة إيل وقد كان له نفس خصائص ومهام الإله المصري رع مما يؤكد قوة التأثير المصري.

إلى جانب الإله إيل توجد إلهة بعلة وهي سيدة مدينة بيبلوس وهي تمثل آلهة الخصب والنماء ويرمزإليها برموز تشبه حاتور المصرية، تشير الوثائق إلى أن مهمتها حامية الملك وضامنة سلامته.

- يهيمن في مدينة صور الثالوث المقدس ملقرط عشتارت وبعل يشكل ملقرط كبير الآلهة وحامي المدينة وتعود عبادته إلى القرن العاشر ق م عندما شيد له الملك حيرام معبدا وفرض عبادته على سكان صور كان ملقرط عند سكان صور هو مؤسس المدينة يحميها ويبارك أنشطتها الاقتصادية وقد انتشرت عبادته في أرجاء المتوسط نظرا للدور الذي لعبته مدينة صور في التوسع التجاري والاستيطان الفينيقي

أما في صيدا فكان يعبد الثالوث المقدس بعل وعشتروت وإشمون وإن كانت عبادة الإله بعل مشتركة بين أغلب المدن الفينيقية فإن عشتروت لها هي الأخرى أصولا سامية وهي إلهة الخصب وهي تشبه الآلهة أفروديت عند الإغريق.

ب- تقديس مظاهر الطبيعة

وفي مرتبة تلي الآلهة قدس الفينيقيون العديد من مظاهر الطبيعة مثل الجبال والينابيع والأشجار وكانوا يقدمون لها القرابين وبنوا هياكلهم قربها.

الطقوس الدينية

ومن مظاهر تكريم الفينيقيين لآلهتهم تخصيص يوم معيّنٍ أو أسبوع معيّن في السنة يحتفلون فيه بعيد إلهٍ معيّنٍ، فيقيمون لذلك احتفالات دينية يتوافد الناس لحضورها من مختلف المناطق، وهي تتخذ شكل الحج لان المعابد عادة ما تكون بعيدة عن المدن في مدينة جبيل أما في صور فيقام عيد الإله ملقارط

المعتقدات الفينيقية

اعتمد الدين الفينيقي السامي الأصل على الاعتقاد بظاهرة الخصوبة والإنتاج. ومن أبرز مظاهر العبادة عند الفينيقيين أنها كانت تدور حول الخصب وعبادته، والبكاء والنواح على موت إلهة الخضرة عشتروت أيام الشتاء، والابتهاج بقيامة الإله بَعل من الموت عندما تهطل الأمطار.من جهة أخرى لم يعتبر الفينيقيون أن الموت هو نهاية الإنسان، كما آمن بذلك معظم سكّان بلاد ما بين النهرين. كما لم يؤمنوا بعودة الروح إلى الجسد، كما آمن بذلك المصريون. لكنّهم اعتقدوا أن النفس خالدةٌ وأن القبر هو بيت الإنسان الأزلي، وأن الروح تخرج من الجسد لكنّها لا تقطع علاقتها به إنّما تبقى بجواره. لذلك وضعوا في قبور موتاهم إلى جانب الجثة بعض الأدوات والحلي.و قد امتازت هذه الأدوات بالبساطة فضمت بعض الأدوات المنزلية

والمصابيح الزيتية.

تماثيل آلهة فينيقية وجدت في صور

الاقتصاد الفينيقي

١- الفلاحة

النشاط الفلاحي

لئن عرف الفينيقيون بنشاطهم التجاري فقد اعتنوا بالزراعة واستغلوا الثروة الغابية وربّوا الماشية

واعتبروا الزراعة المورد الأساسي لكسب عيشهم، فنوّعوا زراعاتهم تبعًا لموقع الأرض ونوّعوا تربتها، واعتمدوا على مياه الأمطار لريّها. ورغم كل الجهود التي بذلوها فقد جاء محصولها غير كافٍ لتأمين الاحتياجات المحلّية. وكانت أهم المزروعات: الحبوب من قمحٍ وشعيرٍ والبقول والأشجار المثمرة كالكروم والزياتين والتين والرمان.

استعمل الفينيقيون الأدوات الزراعية التي كانت معروفة في أيامهم، فكان من أدواتهم: المحراث، والنير الخشبي، والسكة والمذراة والمنجل والغربال وغيرها من الأدوات.

استفاد الفينيقيون من الثروة الغبية التي كانت تغطّي قمم وسفوح جبالهم فأخذوا منها الثمار والصمغ والأخشاب، ومن أشجار الأرز والصنوبر والسنديان بَنوا سقوف بيوتهم كما صنعوا منها أثاثهم وسفنهم.

٢- النشاط التجاري من أهم مقومات الاقتصاد الفينيقي

أ. التوسع التجاري

عوامل التوسع

يختلف المؤرخون في تحديد العوامل الرئيسية التي تفسر التوسع الفينيقي، فبعضهم يعزي هذا الاهتمام بالبحر إلى العوامل الطبيعية المتمثلة في ضيق المجال الزراعي وهيمنة التضاريس الجبلية

أما الفريق الثاني من المؤرخين فيعزي هذا الاهتمام إلى الموقع الساحلي للمدن الفينيقية الامر الذي يجعلها أكثر تفاعلا مع البحر لما يوفره من يسر في التنقلات بالمقارنة على السلاسل الجبلية الوعرة التي تقف حاجزا أمام تنقلات الفينيقيين البرية

أما الفريق الثالث من المؤرخين فإنه يرى أن الفينيقيين أولوا الاهتمام بالتجارة البرية القوافلية بنفس الدرجة التي اهتموا فيها بالتجارة البحرية

و يرى فريق رابع أن اهتمام الفينيقيين بالبحر هو هروب من سطوة القوى السياسية المجاورة مثل المصريين والحثيين والآشوريين والبابليين والفرس. غير أن هذا الراي لا يصمد كثيرا أمام الوقائع التاريخية، ذلك أن العديد من الرحلات التجارية التي كان ينظمها الفينيقيون كانت بتشجيع بل انفاق من قبل هذه القوى السياسية

إن الدوافع الاقتصادية تمثل العامل الأساسي لفهم اهتمام الفينيقيين بالبحر إذ كانوا يفتقرون للمواد الأولية باستثناء خشب الأرز وكميات لا تلبي الحاجة من المنتوجات الفلاحية ومادة الموريكس murex المستخرجة من

أصداف بحرية فالبحارة الفينيقيون كما يذكر ديودور الصقلي كانوا يجوبون البحار بحثا عن معادن الفضة والقصدير والنحاس وهي مواد أساسية للصناعة يقتنيها التجار الفينيقيون بأسعار بخسة ويتم ترويجها بأسعار باهضة في أسواق البحر المتوسط بعد تصنيعها فقد كان الفينيقيون يشكلون حلقة وصل بين أصقاع المتوسط فعملوا على إقامة شبكة من الطرقات البحرية التجارية عبر المتوسط وأسسوا العديد من المراكز التجارية من أجل الاستراحة والتزود والقيام بالمبادلات وهم عكس الإغريق الذين كان هدفهم الأساسي هو الاستيطان فإن هدف الفينيقيين هو البحث عن الأسواق.

إن هذه المغامرة البحرية كانت تستدعي من الفينيقيين بالإضافة إلى الشجاعة وحب المغامرة، السيطرة على تقنيات الملاحة البحرية وبناء السفن القادرة على اجتياز المسافات الطويلة.

من أجل تحقيق أهدافهم التجارية كان الفينيقيون مطالبون بتوفير مجموعة من العوامل الملائمة وهي:

- توظيف جيد للمواقع الجزرية التي يوفرها البحر الأبيض المتوسط والتي تشكل محطات تربط بين مختلف الطرقات التجارية ولا سيما في الجزء الشمالي منه
- استثمار جيد للتيارات البحرية واستغلالها في اجتياز المسافات البحرية الطويلة
- القدرة على بناء سفن متينة قادرة على اجتياز المسافات الطويلة

مظاهر الازدهار التجاري

بلغت التجارة الفينيقية أعلى درجاتها وتنوعت البضائع التي تاجروا فيها فكان منها الصباغ الأرجواني والأقمشة، الزجاج، المعادن، الفخار، النبيذ، الغار والأرز، الخشب... كل هذه الأشياء كانوا يتبادلونها مع اليونان، إيطاليا، إسبانيا، والجزر المتوسطية. كما أنهم خاطروا بالإبحار إلى أبعد من ذلك حتى وصلوا الجزر البريطانية

أكسبت التجارة البحرية الفينيقيين خبرة وذاع صيتهم، وأفادت الحضارة الإنسانية من تجارة الفينيقيين الذين مكنتهم براعتهم في التعامل مع الشعوب في جميع المناطق من نشر الأبجدية وبالتالي المعرفة وتسهيل تبادل العلم والخبرات.

إن عديد الحفريات الأثرية التي تم انجازها في العديد من انحاء البحر المتوسط كشفت عن وجود آثار فينيقية في أغلب المدن الساحلية، ساعدت هذه الاكتشافات في إعادة بناء التاريخ الفينيقي ولو جزئيا.

لقد تساءل المؤرخون منذ زمن بعيد عن طبيعة المنشآت الفينيقية التي كانت تنتشر هنا وهناك على ضفاف المتوسط وقد حاولوا البحث عن الأسباب التي دفعت بهذا الشعب إلى الارتماء في أحضان البحر والبحث عن آفاق جديدة.

للإجابة عن هذه الأسئلة كان لابد من الاعتماد على مصدرين أساسيين هما النصوص القديمة والمكتشفات الأثرية.

تشكل النصوص القديمة مرجعا أساسيا في دراسة التاريخ الفينيقي باعتبار

معاصرتها للأحداث، غير أنه يجب التحري في اعتمادها ومعرفة الظروف التاريخية التي كتبت فيها.

لقد عثر المختصون على نصوص تتحدث عن التجار الفينيقيين، نصوص مصرية وأخرى رافدية وإغريقية وحتى بعض النصوص التوراتية

أما الاكتشافات الأثرية فإنها رغم ندرتها توفر شواهد مادية ومن ذلك: القطع النقدية التي عثر عليها في قاع السفن والقطع الفخارية والخزفية التي كانت تستعمل في نقل المنتوجات الفلاحية وكذلك قطع المصوغ والقطع الفنية أو المصنوعات الحرفية على أن هذه الاكتشافات الأثرية رغم أهميتها تكون محدودة الفائدة لصعوبة استنطاقها فهي لا تمكننا من معرفة محتوى المبادلات التجارية ذلك أن جل المنتوحات المتبادلة مثل الحبوب والزيوت والخمور والنسيج قابلة للتلف وان تكن المعادن أقدر على الصمود والبقاء فإنها هي الأخرى معرضة للتلف والضياع بسبب إعادة الاستعمال

بينت الحفريات الأثرية أسبقية الفينيقيين للإغريق في التوغل في البحر المتوسط ويبدو أن الفينيقيين استفادو من حالة الفراغ الذي كان يسود شرقي المتوسط بسبب غزوات شعوب البحر فمدوا سيطرتهم التجارية على كامل أنحاءه فقد تجاوز الفينيقيون مرحلة الملاحة الساحلية لإقامة مراكز تجارية في كل من قبرص وجزيرة كريت وبمرور الزمن أخذت المراكز التجارية في التزايد وأخذ الحضور الفينيقي يتوغل في اتجاه الغرب فهناك العديد من الإشارات التاريخية التي تؤكد الحضور الفينيقي على السواحل المصرية وفي الدلتا وكذلك على طول سواحل شمال إفريقيا حيث أسس الفينيقيون العديد من المراكز التجارية مثل حضرموت وأوتيكا وتبسوس

وقرطاج وكركوان على السواحل التونسية وسيرتا إيكوزيوم Icosium وراشغون Rachgoun على السواحل الجزائرية الحالية وامسة وليكسوس وموقادور على السواحل المغربية كما تمركزوا بالعديد من الجزر غربي المتوسط مثل مالطا وصقلية وسردينيا كما كان لهم حضور في بلاد الإيبار من خلال مركزي إيبزا Ibiza وقادس Cadix

٢. النشاط الصناعي

أ. صناعات ترتبط بالنشاط التجاري

النسيج ذي اللون الأرجواني

انصرف قسم من السكان إلى الاعتناء بالصّناعة كمورد عيش، وأخذوا الصّناعات التي كانت معروفة عند جيرانهم كالمصريين فتعلموها.

من أهم الصناعات التي عرفها الفينيقيون: صناعة النسيج. فكانت هي الأكثر أهمية عندهم، فقد أنتجوا الثياب الملوّنة بلون الأرجوان المُستخرج من صدف "الموركس" والتي تراوح لونها بين اللون الزّهري والبنفسجي القاتم وقد وجدت هذه المنسوجات رواجا واسعا في أسواق البحر المتوسط لذا انتشرت مصانع الأرجوان بالقرب من مدينة صيدا وصور ويشهد على ذلك تلال صدف الموريكس الباقية حتى الآن جنوبي صيدا.

صناعة التعدين:

اعتمد الفينيقيون مواد أولية معدنية عديدة في صناعتهم مثل القصدير والنحاس والحديد والذهب.

استقدموا القصدير في بادئ الأمر من آسيا الصغرى ولما توسع نشاطهم التجاري جلبوا هذه المادة بأسعار بخسة من إيطاليا ومن إسبانيا وانتهى بهم المطاف إلى الجزر البريطانية

استعملت هذه المعادن في صناعة الأسلحة والأواني والتماثيل والكؤوس والنقود أما الذهب فقد اعتمد في صناعة الحلي وما شابهه من الكماليات.

صناعة السفن

كان الفينيقيون يقلدون الصناعة المصرية والكريتية والميسينية مما مكنهم من بلوغ منزلة عظيمة في الصناعة والسفن.و كان العامل الأساسي لازدهار هذه الصناعة وفرة المادة الأولية المتمثلة في خشب الأرز وحاجتهم إلى السفن بسبب اعتمادهم على البحر في تنقلاتهم وتجارتهم.

تنقسم المراكب التجارية الفينيقية إلى صنفين: مراكب تجارية ومراكب بحرية:

- تكون السفن التجارية طويلة يجلس في كل جانب منها صف أو صفين من الجذافين بحسب حجم السفينة وتتميز السفن التجاري بمقدمة تنتهي برأس حيوان وفي وسطها عمودا يحمل شراعا
- السفن الحربية تتميز بمقدمتها الحادة المعدة للصدام وتحطيم سفينة الأعداء وهي أقل حجما من السفن التجارية

ب- صناعات لها قيمة فنية عالية

ارتبط الفن الفينيقي بمجالي الصناعة والتجارة، يتميز بتنوع أصوله وتكمن طرافته لا في مدى تفرده وإبداعه بل في تنوعه فهو مزيج العديد من

التأثيرات في منطقة شكلت ملتقى لأهم المسالك البرية والبحرية في العصور القديمة وعرفت مرور العديد من الحضارات عليها.

وهو ينقسم إلى مرحلتين

١- مرحلة أولى تمتد منذ القديم إلى حدود الألفية الأولى قبل الميلاد، كان فيها الفن الفينيقي مجرد نقل ونسخ للفن المصري والإغريقي وغيره من البلدان المجاورة.

٢- مرحلة ثانية تمتد من الألفية الأولى قبل الميلاد إلى نهاية الفترة الإغريقية الرومانية حيث شهد الفن الفينيقي تطورا واضحا فلم يعد مجرد تقليد بل تميز بهضم واستيعاب المؤثرات الأجنبية وصياغتها بأسلوب فينيقي أصيل ومتجانس.

إن أهم مميزات الفن الفينيقي هي قدرته على استيعاب كل التيارات الفنية للعصور القديمة ووضعها في خدمة التجارة وعلى ذمة الحرفاء.

إن إبداع الفينيقيين يكمن في نجاحهم في تطويع الفنون وجعلها في خدمة الحياة اليومية وفي متناول الجميع فلم تعد محصورة في فئة اجتماعية معينة بل أصبحت بضاعة موجهة للاستهلاك الجماهيري قام بترويجها التجار الفينيقيون في كل أنحاء المتوسط.

إن الفن الفينيقي لم يكن حبيس مجال معين بل كان متنوع وشمل كل المجالات فمن ذلك صناعة البلور وصناعة الخزف والنسيج والتعدين وصناعة العاج والحلي ومواد التجميل كما شمل الفن المعماري والفن الموجه للآلهة والمقدسات.

تجلت إبداعات الفنان الفينيقي في مجالات عديدة منها

صناعة الزجاج والعاج

تضاربت الآراء حول المخترعين الأوائل للبلور، ففي حين ينسب بعضهم هذا الاختراع للفينيقيين يرى آخرون أنها صناعة مصرية وأن الفينيقيين لم يكونوا سوى مروجين،كما أكدت بعض الدراسات الحديثة أن هذه الصناعة ظهرت لأول مرة في بلاد الرافدين ومنها انتقلت إلى مصر ثم إلى كافة السواحل الشرقية للمتوسط

الثابت أن الفينيقيين استفادوا من هذه الاختراع فصنعوا الأواني والتحف البلورية المتنوعة من أكواب وقوارير وأقنونات العطر والمزهريات ذات الألوان المتنوعة وهي أدوات موجهة للاستهلاك اليومي ولكنهم استعملوا البلور لصناعة الحلي كالأساور والقلائد والأقراط ومن الثابت أيضا أن الفينيقيين هم الذين استنبطوا تقنية النفخ في البلور وهو اختصاص مدينة صور وقد وجدت هذه الصناعة رواجا كبيرا في بلدان المتوسط.

استقدم الفينيقيون العاج من الهند عن طريق بلاد الرافدين أو من إفريقيا عن طريق مصر، وقد صنعوا منه علبا صغيرة وتماثيل وأمشاط وغيرها من مواد الزينة وقد وجدت العديد من المصنوعات العاجية في النواويس والمقابر لأنها كانت تودع مع الميت.

صناعة الخزف

لم تحض صناعة الخزف الفينيقية بالعناية التي حظيت بها صناعة الخزف لدى الإغريق وذلك بسبب تفوق هذه الأخيرة.

تنحدر صناعة الخزف الفينيقية من صناعة الطين السورية الفلسطينية التي تعود إلى العصر البرنزي والتي كانت تتميز باستعمالاتها المتعددة المنزلية والتجارية والجنائزية وهي تنقسم إلى شكلين كلاسيكين رئيسين: الأشكال المفتوحة والأشكال المغلقة.

تستعمل الأواني ذات الشكل المفتوح كأطباق للطعام في حين أن الأشكال المغلقة مثل الجرار يمكن إغلاقها وهي مهيأة للخزن أو لشحن البضائع مثل الحبوب والخمور والزيوت.

أما أواني الشرب فهي ذات منقار طويل مثبت في جانب الإناء وتكون في شكل إبريق وهي مجهزة بمصفاة.

بعض هذه الجرار له وظيفة جنائزية فهي توضع في القبور لاحتواء على رماد الجثة.

تأثرت الخزفيات الفينيقية بإنتاج المراكز المجاورة كما نجد في فينيقيا أواني مستوردة ذات طابع غربي متأتية من اليونان أو صقلية أو من المناطق التي استقر بها الفينيقيون مثل سردانيا وشبه الجزيرة الإيبيرية.

صناعة التحف والحلي

اهتم الفينيقيون كثيرا بهذه الصناعة لأسباب عديدة:

- إقبال الحرفاء عليها.
- خفة وزنها وسهولة نقلها.
- أهمية الأرباح التي توفرها.

لذا عمل الفينيقيون على اعتناء بهذه الصناعة وشكل الذهب أهم المواد

المستعملة في حين كان استعمال الفضة محدودا بسبب تصدئه السريع كما استعملوا البرنز والأحجار الكريمة والبلور لصناعة الحلي.

أما أشكال التزويق فهي مستوحاة من الفن المصري الذي كان يجد آنذاك رواجا كبيرا في الأسواق العالمية وكانت الأشكال المورقة والرسوم الحيوانية والحشرات مثل الخنفساء هي الأشكال الأكثر انتشارا.

٥
الحضارة السومرية

الحضارة السومرية هي حضارة لمجموعات بشرية في جنوب شرق الهلال الخصيب (بلاد سومر) في العراق اليوم، خلال الألف الرابع قبل الميلاد، سمى السومريون بلادهم كن-جير (ken-gi) ولغتهم إم-جير ("eme-gir")، والتسمية شومر (سومر) هي تسمية أكادية لمنطقة جنوب العراق وسكانها، والتي تكرس استخدامها، من قبل الباحثين، مع إعادة اكتشاف الكتابة واللغة والثقافة السومرية، في القرن التاسع عشر الميلادي.

تعتبر الحضارة السومرية أقدم الحضارات التي ظهرت في بلاد ما بين النهرين (العراق). يرقى تاريخها إلى العام ٤٠٠٠ قبل الميلاد وتمتد إلى حوالي العام ٢٢٠٠ قبل الميلاد. والواقع أن السومريين لم ينشئوا إمبراطورية واسعة، بل اكتفوا بإقامة مجموعة من الدول المدينية المستقلة التي بلغت مرتبة عالية من التمدن. فقد شيدوا القصور والهياكل، وعنوا بالزراعة وتربية الماشية، وإقامة السدود لدرء مخاطر فيضانات دجلة والفرات، وبنوا شبكة واسعة من قنوات الري، ووضعوا تقويما قمريا خاصا بهم ونظاما حسابيا قوامه الرقم (ستون) فكانوا يقولون مثلا خمس ستينات بدلا من ثلاثمائة. وعلى أساس وحدة (الستين) هذه جعلت الساعة ستين دقيقة، والدقيقة ستين ثانية، وقسمت الدائرة إلى ٣٦٠ درجة.

الحضارة السومرية التي أثرت الإنسانية بالمنجزات في شتى الميادين فمن اوروك وسومر واريدو ولكش انطلقت الكتابة المسمارية ومنهنا خط الحرف الأول وكتبت القصيدة الأولى ومن هنا كانت الملكة شبعاد تستأنس بالوتر والموسيقى،ومن الحضارة السومرية انطلق المشرع الأول اور نمو ليشرعن القانون الأول.

إن آثارنا الحضارية التي تعج بها المتاحف العالمية بعد أن هربت في عهدين وزمنين في عهد الدكتاتور حينما كان يهربها ارشد والآن سرقت أكثر من (١٥) ألف قطعة أثرية من قبل سراق الآثار وسراق الحضارة.

قدم الباحث التاريخي حسن علي خلف محاضرة رائعة عن الحضارة السومرية ثم الوصول إلى تاريخ مدينة الناصرية التي تبعد عن اور مهد الحضارة (١٨) كم...ضمن النشاط الثقافي الرمضاني في أسبوعه الأخير في دائرة الصحة بحضور حشد كبير من الأطباء والأدباء والأكاديميين.. تناول في بحثه الواسع تاريخ المدينة من خلال المجلدين اللذين صدرا له،..

منذ بداية تاريخ المنطقة والأدوار والمراحل التي مرت بها المدينة وتاريخها وارثها الحضاري..إلى الجزء الثاني من كتابه عن النشاطات المختلفة لمدينة يحتشد فيها الإبداع متواصلا جيلا بعد جيل. وقد تناول بالتفصيل المنطقة منذ فجر التاريخ مرورا بكل السلالات التي أنشأت فيها وصولا إلى الفتح الإسلامي وفي الفصل الثاني واصل الباحث تناول الأحداث التي جرت فيها إبان العصر العباسي وفي الفصل الثالث تناول الأحداث بعد سقوط بغداد ١٢٥٨ م وما جرى في المنطقة أما في الفصل الرابع الاحتلال البريطاني للعراق ومقاومة الناصرية لهذا الاحتلال ومعارك الشعبية وثورة العشرين

وفي الفصل الخامس جاء الكتاب ليفصل بشكل رشيق بعيدا عن الاستغراق والإطالة والحشو فجاء الفصل جميلا مشذبا لم يثقله بالتفاصيل غير الضرورية.

معظم النظريات التاريخية تؤكد على نشوء الحضارات إلى جوار الأنهار ومن أقدم تلك الحضارات الحضارة السومرية التي قدمت منجزاتها التاريخية للإنسانية وأثرت الأرشيف الإنساني بعطائها حيث الحرف الأول والموسيقى والتراتيل والملاحم والقوانين من ربوع هذه الأرض فالكتابة السومرية التي نقشت على اديم هذه الأرض وفي زقوراتها ومدنها تمثل الضياء الأول لفجر التاريخ وبحث الإنسان عن الخلود وأسئلة الوجود وماهيته تجسد في ملحمة كلكامش واستخدام الموسيقى عند ملكة سومر شبعاد وفي قصور شولكي واور نمو الذي خط القانون الأول للإنسان لينظم حياته كل هذه العطاءات نتاج هذه الأرض التي استوطن على أديمها وحواضرها الإنسان الحضاري الأول. كتب الباحث حسن علي خلف هذا السفر التاريخي بحرفية المؤرخ الذي يمسك موضوعه بعناية فائقة وتسلسل الأحداث ودقة في استخدام المصادر المتنوعة التي يشير إليها في بحثه مع الموضوعية التامة في تحليل واستنتاج الأحداث التاريخية وقد استنفذ منه جهدا لمدة خمسه سنوات ليخط يراعه تاريخ مدينه هي أيقونه الحضارة في نافذة التاريخ

في المقدمة صفحة (٨) يذكر الباحث (على مساحه لا بأس بها من السهل الرسوبي،الذي تكون بعد انحسار الزحافات الجليدية وامتداد التصحر، وراح يقتطع أطراف جزيرة العرب بدأت أولى بوادر السكن في هذه المنطقة والتي يعرفها الجغرافيون كيف تكونت وما هي الظروف التي أدت إلى استكمال انطمار البحر السائد في ذلك الزمان ليصبح سهلا مجاورا للقارة

الاركيه التي تشغل جزءا من مساحتها جزيرة العرب وان بوادر السكن الأولى في هذا السهل الخصب حديث التكوين،ربما تتمثل بقرى العبيد على ساحل الفرات الذي يلتقي بدجله آنذاك قرب هذه القرى حديثة التكوين).ثم استعرض المدن الأولى في التاريخ الإنساني اور وسلالات المدن السومرية فقد خط بانامله المبدعة انجازات وخصائص ومعتقدات فجر السلالات وتكوين المدن الحضارية الأولى.

(ذي قار في التاريخ صفحه ٣٠) (ذي قار ليس أكثر من ينبوع ماء يتدفق بين الكوفة والبصرة،ترتاده بعض القبائل في مواسم الصيف، وان ذلك الينبوع أو العين يجري في منطقه كثر قارها ومن فرط كثرته كان يطفو إلى السطح وان ابرز القبائل التي كانت ت تاد تلك العين في فترة ما قبل الإسلام قبائل بني شيبان التي هي بطن في قبائل بكر بن وائل)وقد استعرض في كتابه سلالة اور الأولى وسلالة لكش وسلالة اور الثالثة وسلالة ايسن وسلالة لارسن.

إن ما ذكره المؤرخون والمنقبون في تلك الحواضر وما عثر في المقابر الملكيه والألواح الطينية من انجازات حضاريه كالتعدين واستخدام الري اضف إلى ذلك صناعة الحلي والمجوهرات التي تطوق أعناق ملكات سومر وفتياته أما المنجز الإبداعي في الشعر والملاحم فملحمه كلكامش خير اثر تركه أبناء سومر في سفرهم الحضاري أن الجهد الرائع الذي بذله المؤرخ حسن علي خلف ينبغي أن يشار إليه بالبنان على تصنيفه المذكور المميز بالسرد التاريخي الشيق مع ربط حلقات المراحل التاريخية دون إغفال أي مفصل تاريخي مرت به الناصرية منذ النشوء الحضاري الأول إلى الوجود المعاصر،

فالمدينة التي كانت مهد للحركات السياسية في العشرينات منذ فهد ثم أواخر الأربعينيات فؤاد الركابي ثم حزب الدعوة في ١٩٥٨ فقد أكد الباحث حسن علي خلف على ميزة المدينة الثقافية والسياسية، ولا غنى إطلاقا لمن يبتغي الحقيقة التاريخية فيستخدم هذا الكتاب كمصدر تاريخي لمعرفه حضارة وادي الرافدين والأحداث التي مرت به سياسيا واقتصاديا واجتماعيا في ظلال تلك الفصول المشبعة بالمعلومات التاريخية والوثائق والمنجزات التي قدمتها الحضارة الإسلامية ودور أبناء تلك البطائح في منجز الحضارة الإسلامية في العصر الراشدي والأموي والعباسي وموقف أبناء الناصرية في ثورة العشرين، وجماليات المكان في سحر الأهوار والتي صدر له كتاب خاص فيها في عام ٢٠٠٤. يذكر الباحث حسن علي خلف في أهميه المواقع الأثرية في الناصرية صفحه ٢٧٥ (لقد كان لسومر واور شهره سياسيه عاليه واسعة ومنزله مرموقة بين شعوب الأرض بما يتصف به هذا الشعب بقدره فائقة على العمل والإبداع والإنتاج وتطويع الطبيعة والطرق على كتله هذا الكون لاستخراج الخيرات وبناء المجد، والحضارة بتشييد المدن والقلاع والمعابد والزقورات) إن هذا الجهد المثابر حري بالمؤسسات الثقافية والأكاديمية بتسليط حزمه من الضوء عليه لإشراقات الحضارة العراقية المنطلقة من مدينة إبراهيم الخليل عليه السلام اور السومرية. إن تدوين تاريخ الحضارة العراقية وبواكير المدن الحضارية مسؤولية المثقف العراقي لإعادة كتابة التاريخ وفق المنهج العلمي الرصين بعد أن شوه الفكر المؤدلج التاريخ وزيفه،من هنا فأن الجامعات مدعوة إلى توجيه البحث العلمي الرصين للحضارة العراقية والمراحل التاريخية التي مرت بها مدننا الحضارية بعد أن زيف النظام المباد التاريخ وكتبه بشكل خاطئ.

ومن زاوية ثقافتنا الإسلامية اليوم، يتصور البعض أن الإنسان يتساءل بالفطرة عن خالق، فيصل إلى وجود الله، غير ان الحضارة السومرية الاكدية المبكرة تقدم لنا صورة أخرى فريدة للغاية، ما هي الأسباب التي دفعتهم لذلك؟.

يتفق الباحثون على أن المدن السومرية الأولى نشأت حوالي نهاية الألف الرابع قبل الميلاد في حوض بلاد الرافدين، وفي ذلك الوقت كان عدد المدن محدود للغاية. في المدن الثلاث الأولى كان عدد السكان في حدود خمسة آلاف شخص للمدينة الواحدة، في ذات الوقت الذي كانت تحيط بالمدن البراري حيث يسكن الإنسان البري، الذي كان ينظر إليه سكان المدن بغرابة ويتساؤلون عن سبب تميزهم عنه. الإنسان البري كان يحيط بالمدن من كل الجهات، ويشكل خطرا وتهديدا على سكانها، الذين أعطوا لأنفسهم حق انتزاع الأراضي المشاعية وتملكها بواسطة زراعتها، وهو الحق الذي لازال حتى اليوم يعيش بيننا تحت اسم " وضع اليد".

وفق تقديرات العالم الأمريكي برايدوود؛ فإن كثافة سكان البراري في فترة التجمعات الحضرية الأولى وصلت إلى ٢٥٠٠ شخص لكل ١٦٠ كيلومتر، بعد أن كانت ١٣ شخص لكل ١٦٠ كيلومتر قبل عشرة آلاف سنة، أي قبل نشوء المدن الأولى ولكن مع بدايات نشوء الزراعة الفردية. الآثار تشير إلى أن الفلاحين قبل سبعة آلاف عاما كانوا يضطرون إلى استهلاك جهودهم في بناء أسوار حجرية (اريحا مثلا) حول حقولهم، مما يدل على جدية التهديدات التي تعرضوا لها من الإنسان البري.

نشأت المدن الأولى من تجمع الفلاحين الأوائل حول الأراضي التي اقتطعوها

من الأراضي المشاعية، فوضعوا اليد عليها واعتبروها ملكيتهم الخاصة تحت ضرورة الحاجة لزراعتها، في نفس الوقت الذي كانوا يحتاجون إلى حماية جهودهم التي بذلوها في الزراعة من إنسان البرية الذي يعتبر الأراضي مشاعة ولا يفهم معنى للملكية الخاصة كما لا يمكن إقناعه بشرعية الاستيلاء على الأراضي المشاعية التي تشكل مصدر غذائه. وتحت تأثير ازدياد عدد السكان، وبالتالي الحاجة إلى طرق أفضل للحصول على الطعام، وتأثير الإنسان البري الذي يرفض التحول إلى الزراعة أو القبول بسلب الأراضي المشاعية، نشأت المدن الأولى.

لدينا الأدلة على أن نشوء نواة المدن بدء قبل الحضارة السومرية بكثير، وتسمى الفترة العبيدية، وهي فترة لم يكن الإنسان قد اكتشف فيها الكتابة، ولذلك لم تصلنا معلومات عن هذه الحضارة. غير أن ذلك يعني أيضا انه لم يتمكن من الحفاظ على "ذاكرته" التاريخية للمرحلة المتأخرة، لذلك فقد القدرة على أن يفسر أسباب تميزه عن الإنسان البري، وضاعت من ذاكرته أن أجداده انحدروا عن الإنسان البري، وإنهم أيضا كانوا يعيشوا بين الحيوانات بدون ملابس، تماما كما كان أبناء المدن يصفون الإنسان البري، حسب الألواح الطينية التي وصلتنا.

كان من المفهوم المميزات التي تقدمها حياة المدن والزراعة لإنتاج الطعام مع تزايد سكان البراري والصراع على الموارد المحدودة، ولذلك يسمي الاختصاصيين هذا الانتقال "بثورة العصر الحجري الحديث". في هذه الفترة كان الإنسان قادر على إنشاء القنوات وزراعة المحاصيل وصناعة الأقمشة والخمور، ولكنه لم يتمكن من تفسير أسباب تفوقه عن الإنسان البري ومصدر

معرفته. من الألواح الطينية نستطيع الاستنتاج أن الأسئلة الرئيسية التي كان يحتاج إلى الإجابة عنها هي:

- من الذي هداني إلى الزراعة وعلمني بناء قنوات الري وصناعة الملابس والخمور والجعة؟
- من الذي انعم علي ببناء المدن وعلمني السكن فيها وهداني إلى لبس الملابس؟
- من الذي أنعم عليّ بنعمة التميز عن الإنسان البري، واختارني لأكون بين القلة القليلة من سكان المدن المحظوظين، وما هو هدفه من ذلك؟

كما هو الأمر دائما، كانت القوى التي تقف على قمة الهرم الاجتماعي هي التي تكفلت بالرد على هذه التساؤلات، وفي صياغة الإجابات انعكست مصلحتها في ترسيخ سلطتها وتشريع سلب الأراضي المشاعية بإرادة إلهية.. كان من الواضح ضرورة خلق قوى تقف فوق الجميع، قوى فائقة القوة وذات نفوذ لا يقبل الجدل، قوى مجهولة ولذلك فهي مخيفة، قوى مسؤولة عن مصيرنا، تلوح بالثواب والعقاب كجزرة لفرض الطاعة، قوى حيث حفنة قليلة وحدها القادرة على التواصل معها ومفوضة منها وما علينا إلا الطاعة.

عثر العلماء العراقيين على آثار المعابد الأولى من بدايات الفترة العبيدية، الأمر الذي يشير إلى أن المفاهيم الدينية نشأت مبكرا بالترابط مع الحاجة الإيديولوجية للدفاع عن حاضنات الحضارة الأولى ضد هجمات الإنسان البري، الذي قاوم محاولات حرمانه من الأراضي الخصبة التي جرى انتزاعها وإعلانها "ملكية خاصة".

الإجابة على تساؤلات السومريين المبكرين كانت، بالضرورة، من خلال إبداع قصص خلابة. تقول القصة السومرية أن المنطقة (مابين الرافدين) هي بلاد الآلهة التي تشير إليهم بتعبير "هؤلاء الذين من السماء إلى الأرض جاؤوا". هذا التعبير نجده في صحيفة الملك وهي صحيفة سومرية تنقل إلينا أخبار الأرض وحكامها على امتدا ٤٠٠ ألف سنة، إنها الصحف الأولى، الذاكرة الأولى، حيث كل شيء محفوظ.

وتخبرنا الصحيفة أن الآلهة جاءت من كوكب نايبيرو في مركبات، كانوا ثلاث (أو ثلاثة وكبيرهم)، ولهذا كانت الآلهة، في التصور السومري، على الدوام مجلس من ثلاثة.. والغريب أن هذه الصحيفة تشير إلى أن السنة الواحدة على كوكب نايبيرو تعادل ٣٦٠٠ سنة مما تعدون. غير أن ما يهمنا هنا هو الطريقة التي جرى فيها استخدام الدين للرد على تساؤلات الإنسان السومري البسيط المبكرة.

قصة الخلق السومرية التي وصلتنا كانت بنسختين، في نسخة منهم كان اينكيدو (ما يعادل آدم) عارياً في رفقة الحيوانات في الجنة، في النسخة الثانية كانت إلى جانبه امرأة (حواء) عوضا عن صحبة الحيوانات. ولكن لماذا خلقه؟

يكتب السومريين أن الإله انليل، وهو اكبر الثلاثة، أمر الإله اينكي بخلق الإنسان من طين. وكان ذلك ردا على ثورة الآلهة الصغيرة ايغيغي التي تعبت من خدمة جنة الآلهة. يقوم الإله اينليل بذبح الربة الثائرة ايغيغي ويخلط دمها بالطين فينفخ فيه الروح. ينقل الإله اينليل الإنسان الجديد إلى حديقته (كلمة الجنة السومرية تعني حديقة بالعربية) ليصبح خادما فيها، فيقوم برعاية

المحصولات والشجر وحصاد المحاصيل وصناعة الخمور لتقديمها للآلهة. ويكون العري هو رمز العبودية، في حين أن الإله السيد يلبس أفضل الملابس ويضع تاج وعلى العرش يستوي كرمز للسيادة. إن الآلهة خلقت ادم من اجل أن يكون عبدا في الجنة بالمعنى الحرفي للكلمة.

يجب الإشارة إلى ان الجنة في الميثيالوجيا السومرية كانت تقع على الأرض، وتحديدا في جنوب العراق والبحرين وعُمان اليوم. في هذه الجنة علمت الآلهة آدم ما لم يعلم، حيث أصبح يتقن الزراعة وصناعة الخمور والملابس وفتح قنوات الري وجمع المحاصيل لتقديمها إلى الرب السيد.. بعد أن وضعت الآلهة هذا المخلوق المتوحش (حسب تعبير الألواح الطينية) في جنة عدن لتعليمه وبعد أن برهن عن براعة، قررت ان تتركه حرا، ليصبح سيدا في مدن الآلهة (على الأرض) فتكون وظيفته مراقبة "الإنسان الغير مُعلم وتعليمه خدمة الآلهة والعبودية لها". من هنا أصبح اينكيدو،ابن الآلهة واستحق أن يكون وكيلها على الأرض فيكون هو ونسله (شعب الله المختار) الذي استحق أن يقود بقية البشر لشرف نسبه وعلمه الذي علمه إياه الآلهة. خدمة الآلهة تصبح هي التفويض التي تبيح له البقاء على قمة الهرم الاجتماعي وإدارة البلاد وإقرار تشريع سلب الأراضي المشاعية تحت حجة تأمين الهبات والأضاحي للإلهة لترضى.

التماثيل والمنحوتات كانت لتذكير البشر أن ملوكهم على الأرض هم في الحقيقة أبناء الآلهة، يمتد نسبهم إلى السماء ولذلك فقراراتهم منزلة من الآلهة وبرضاها. ولتذكر البشر أن الملوك هم منحة الآلهة إليهم، لتعليمهم الزراعة وإدارة المدن فيقوموا برد الجميل من خلال خدمة الآلهة وتقديم الأضاحي.

بهذا الشكل، تكون الآلهة هي التي تركت مدنها لأبنائها مقابل قيادة بقية البشر (الفرع البري) وتعليمهم الزراعة والإشراف على أنهم فعلا سيقدموا الأضاحي والهبات إلى معابد الآلهة. وبهذا الشكل جرى تشريع الوصاية الإلهية والخضوع واستغلال الدين في السياسة، وترسيخ مفاهيم نسب الإشراف والسادة التي لازالت تنخر فينا حتى اليوم.

وبهذا الشكل جرى الإجابة على التساؤلات، ليصبح تفسير تفوق ابن المدينة المعرفي هو ان الآلهة علمته ما لم يعلم، وهو فضل عليه أن يدفع ثمنه بالتخلي عن حريته ليصبح عبدا إلى الأبد، في المقابل يحصل على حياة أكثر رخاء واقل جوعا وملابس تسمح له التشبه بالالهة، ويحصل على حق سلب الأراضي المشاعية بدون تأنيب ضمير..

"أور" المدينة التي شهدت مولد إبراهيم الخليل: مدينة "أور" هي موقع أثري لمدينة سومرية بتل المقير جنوب العراق. وكانت عاصمة للسومريين عام ٢١٠٠ق.م..وكانت بيضاوية الشكل وكانت تقع على مصب نهر الفرات إلا أنها حاليا تقع في منطقة نائية بعيدة عن النهر وذلك بسبب تغير مجرى نهر الفرات على مدى آلاف السنين الماضية.

تقع " أور " على بعد بضعة كيلومترات عن مدينة الناصرية جنوب العراق وعلى بعد ١٠٠ ميل شمالي البصرة.

وتعتبر واحدة من أقدم الحضارات المعروفة في تاريخ العالم. ولد بها الخليل إبراهيم أبو الأنبياء عام ٢٠٠٠ق.م.
ونزلت عليه فيها الرسالة الحنفية. واشتهرت المدينة بالزقورة التي هي

معبد لنانا آلهة القمر في الأساطير (الميثولوجيا) السومرية. وكان بها ١٦ مقبرة ملكية شيدت من الطوب اللبن. وكان بكل مقبرة بئر. وكان الملك الميت يدفن معه جواريه بملابسهن وحليهن بعد قتلهن بالسم عند موته. وكان للمقبرة قبة.

اور كانت مسكونة منذ فترة العبيد حيث كانت القرى عبارة عن مستوطنات زراعية، ولكنها أصبحت مستوطنة كبيرة مع حاجة هذه المدن إلى مستوى أعلى من حيث السيطرة على الري في أوقات الجفاف. وفي الفترة ٢٦٠٠ق.م وخلال حكم السلالة الثالثة في الفترة المبكرة ازدهرت اور من جديد. وأصبحت المدينة المقدسة للآلهة نانا. وفي الأخير أصبح ملوك أورهم الحكام المسيطرين على سومر.

و قد ازدهرت أور مع سلالة أور الثالثة.. سلالة أور الثالثة هي أسرة سومرية أسسها في مدينة أور الأمير الشهير "أور نمو" وقد بلغ عدد ملوكها خمسة حكموا أكثر من مائة سنة (٢١١١– ٢٠٠٣ ق.م) اشتهرت هذه السلالة بتعمير البلاد وإعادة اللغة السومرية للتداول بعد أن نافستها اللغة الأكدية، وتقديم الآلهة السومرية القديمة على غيرها من الآلهة وإقامة الشعائر الطقوسية السومرية القديمة.

وقد تقدمت الحضارة في هذا العهد تقدما محسوسا وانتشرت المعارف بمختلف مناحيها من علوم وآداب وفنون ونالت أور القسط الأوفر من العناية حتى أصبحت قبلة الشرق القديم وقد دون في هذه الفترة كثير من الأخبار التاريخية القديمة وسطرت الأساطير والقصص الدينية.

على بعد ١٥ كم شمال غربي مدينة الناصرية تبدو آثار أور المطلة على

التأريخ من أوله حيث أنشأ السومريون واحدة من أعرق حضارات ولتبدأ إشراقة بدء الوعي والخطوات الأولى صوب نوافذ المعرفة.

وليس بعيداً عن أور تقع مدينة أوروك السومرية وفيها وضع الحرف خطوط أشجانه المعرفية وبدأت الأبجدية تنطق أناشيد التودد إلى الآلهة، ونطقت الذاكرة السومرية تساؤلاتها بحروف مسمارية دونت على لوح الطين خطوطاً متساوية الاتجاهات ومدببة النهايات لتكون اللغة المفهومة الأولى في العالم.

وعندما كانت هناك مدينة أوروك التي حكم فيها الملك الأسطوري جلجامش الذي كان يأم إلى أور في مواسم أعيادها الكثيرة ليأخذ من الآلهة النصح والإرشاد ليبدأ رحلته الأسطورية المعروفة بحثاً عن الحياة الدائمة التي لم يحصل عليها.

ومع أوروك كانت هناك مدن سومرية أخرى لها ريادات كونية متعددة كمدينة أريدو شمال مدينة أور ببضع كيلومترات التي تفتخر من بين مدن فجر السلالات أن أهلها السومريون أو غيرهم ممن سكن هذه البقاع ويقال أنهم أصحاب حضارة "العبيد" ابتنوا أول المعابد قبل أن تعرفها الحضارات الأخرى للتقرب من السماء ومنادمة الآلهة، وفي الديانات التوحدية كانت بيوتا لذكر الله وعبادته والتقرب إلى رحمته الكونية، ومع أريدو كانت هناك مدن لارسا وتلو ولكش وسنكرة ومدن أخرى اجتمعت في نفس المحيط الحضاري الذي شيدت عليه أور مجدها العظيم.

في ظل هذا الأديم الذي تكاملت فيه رؤى الإنسان الأولى ومع انتشار السلالات وتعدد اتجاهات الشعوب في لهجات وأمم، كانت أور سباقة

لتكون منشأ كل ما هو طيب، وكان أهلها يفكرون قبل غيرهم بأسرار الموجودات التي يرونها حولهم حيث كان الخليج قبل مكانه الحالي يلطم بموجه الهادر أسس مدينة أور قبل أن يبتعد عنها لتبقى اليوم بعيدة عن النهر بعشرة أميال من جهة الشرق.

ورغم هذا كشفت أثريات هذه المدينة قدرة أهلها على شق الأنهر والترع والقنوات لنقرأ فيما تركوه من كشوفات أن التجارة النهرية لهذه المدينة أوصلت سفن السومريون إلى دلمون التي هي اليوم مملكة البحرين وكانت تعتبر قديماً الجنة المفترضة للخلود السومري وكانت لأور أيضاً معاملات مع { مكان } التي هي اليوم سلطنة عُمان ومع بلاد الهند وكانت الأحجار الكريمة تجلب من مناجم (باداكشان) في أفغانستان، والفخار المميز من كرمان وسط إيران ويقال أن تجارة هذه المدينة امتدت شمالا حتى أرمينيا في أسيا الوسطى.

غير أن أهم ما يميز المدينة ارتباطها بالرؤى التوراتية الأولى عندما أعتقد منقبها الأول والذي أكتشف أغلب تراث المدينة وأهمها كنوز مقبرة أور الملكية التي تعود إلى ملوك وأمراء سلالة أور الثالثة العلامة البريطاني "ليوناردو وولي" الذي سحره الاعتقاد في بدء التنقيبات.

وكما جاء في مذكرات من رافقه في رحلة التنقيب مساعداً وهو العالم الأثاري "ماكس مالوان" زوج الروائية الإنجليزية الشهيرة "أجاثا كرستي" قوله في الصفحة ٣٦ من المذكرات ما نصه:"كانت المغريات التي اجتذبت وولي للعودة إلى أور في ذلك هائلة لأنها كانت مدينة قديمة مبجلة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالعهد القديم وكان ما يزال هناك عدد كبير من قراء الكتاب المقدس.

.لقد جعلت التنقيبات رحلة "تارح" أبي إبراهيم يسيرة الفهم لأن حران مثل أور كانت مركزاً لعبادة القمر. وكان وولي يأمل دائما في أن يكتشف بعض الإشارات إلى إبراهيم، ورغم أن أسمه لم يظهر أبداً في سجل الألواح المسمارية، إلا أنه أفلح في أعادة تكوين خلفية الوطن الأصلي لنبي العهد القديم هذا قبل هجرته من سومر التي سميت بلاد بابل فيما بعد إلى فلسطين.

والانتساب الإبراهيمي إلى أور تؤكده حقائق تاريخية عديدة غير ذلك الأثر الذي يبعد عن قاعدة الزقورة بحوالي ٣٠٠ متر ويقال أنه البيت الذي ولد فيه إبراهيم الخليل عليه السلام والذي ظل مهملاً إلى أن فكر قداسة بابا الفاتيكان في بدء رحلة كونية بمناسبة الألفية الثالثة وفاءاً من قداسته للدور الريادي الذي لعبته هذه المدينة والتي عانت من إهمال مقصود عبر حقب عديدة من دولة العراق الحديثة منذ أن سمح للبعثات الأثرية بنبش أرض أور وسرقة كل كنوزها الأثرية التي تعرض اليوم في متاحف أوربا وأمريكا.

ويبدو أن النبي الكريم عاش في أور ردحاً من الزمن أكدت انتماءه إلى هذه الأرض، ما حقاً بذلك كل الادعاءات القائلة كما اليهودية بانتساب إبراهيم أليها كما ورد في سورة آل عمران من الذكر الحكيم "ما كان إبراهيم يهودياً" وعندما جاهر بالدعوة كانت أور موطنها الأول، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة من سورة الأنبياء: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾ (الأنبياء: ٥١-٥٣).

ويبدو أن الكثير من أبناء أور قد آمنوا بإبراهيم عليه السلام وكانوا معه في رحلته الإيمانية التي امتدت من أور إلى حران ومصر وفلسطين حتى الجزيرة

العربية حيث أمر ببناء الكعبة الشريفة ثم العودة إلى أرض فلسطين حيث يلبي نداء خالقه ويتوفى كما ورد في الإصحاح الخامس والعشرين ـ تكوين.من أول الآية السابعة إلى آخر الآية العاشرة من أن النبي إبراهيم حين توفي دفنه ولداه أسحق وإسماعيل في مغارة المكيفلة في حقل غفرون بن صرصر الحثي والتي دفنت فيها زوجه ساره من قبله، وهو نفس مقام الخليل في حبرون والذي كان في الأصل أسمه قرية أربع والتي هي اليوم مدينة الخليل التي تصمد بكل جبروت المؤمن ضد القساوة الإسرائيلية، وهم بذلك يتعدون ضد قيم التوراة الأولى التي دعتهم باسم الرب وقالت لإبراهيم "أنطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك* وأنا أجعلك أمة كبيرة وأباركك وأعظم أسمك وتكون بركة".

لقد امتزجت الأساطير بوقائع الألواح. كل واحد من أمراء أور وملوكها كان يتحدث عن المدينة بطريقته الخاصة. ولكن أور ـ نمو أمير البناء والعمران والتي أظهرت لنا دلائل التنقيب صوره وتماثيله وهو يحمل "طاسة" البناء على رأسه في عزم منه على أتمام بناء الزقورة التي لم تزل إلى اليوم شامخة في ذات المكان الذي بنيت فيه، وهي أول بناء شامخ في تأريخ الحضارات بني لقصد تقرب الإنسان من الآلهة.

وقد تميزت بهندستها الرائعة وسلالمها العالية وأجرها الأحمر المفخور والذي يرجع تأريخه إلى أكثر من ٥٠٠٠ عام وكان ارتفاعها الأصلي يبلغ ٧٠ قدما ولها ثلاث سلالم كل سلمة ١٠٠ درجة وكانت كل أجرة قد ختمت بختم الملك السومري أور ـ نمو الذي كان يحمل أسمه.

كانت أور واحدة من أضخم الحواضر البشرية في ذلك الوقت. وإذا

أردنا أن نحدث القرائن بين وجودها وطبيعة الخلق الذي ابتدأه القدير العزيز بآدم عليه السلام تكون هي من بين المدن التي تفتخر بانتمائها التاريخي. لهذا يحق لنا أن نقول عن أور هي واحدة من مدن بدايات التبشير الأول.

ويبدو أن السير الحضاري لوجود المدينة مرهوناً بالإرادة السياسية لملوكها اللذين عاشوا صراعات لا تنتهي مع السلالات المجاورة والممالك الإقليمية حتى دفعت ثمن نهاية ملكها إلى الأبد في معركتها الأخيرة مع الحياة عندما غزتها مملكة عيلام التي تجاور مملكة سومر وعاصمتها أور من الشرق والجنوب وأدى ذلك إلى إحراق المدينة عن بكرة أبيها وانتحار ملكها المسمى أبي ـ سين ونقل ألهها "سين" أله القمر ليعبد هناك.

وتربط مدينة أور بهاجس حضاري متقدم هو هاجس الموسيقى، فقد كشفت تنقيبات وولي في مقبرة أور المقدسة أقدم الآلات الموسيقية وأهمها قيثارة الملكة السومرية بو ـ آبي والتي تسمى خطأ الملكة "شبعاد" وهي جزء من مقتنيات كثيرة عثر عليها في الأقبية الملكية التي كان يمارسها فيها نمطاً خاصاً من الشعائر الجنائزية في اعتقاد أهل أور خاصة والسومريين عامة أن الملك عندما يموت فأن حياة في ذات الرفاهية تنتظره فكان عليه أن يصحب معه إلى قبو موته خدمه وحشمه والكثير من المقربين أليه وهم أحياء وكانوا يصطحبون معهم القيثارات لتسلية الملك في عالمه الآخر، وكان وولي قد وجد هذه القيثارات في تلك الأقبية وهي مطعمة باللازورد والأحجار الكريمة الأخرى وقد سماها خطأ "الراية الملكية"، ولم تكن هي سوى صندوق موسيقي للقيثارة.

ويمثل هذا الوصف المهيب الذي ذكره "مالوان" في مذكراته روعة ما

وصف به هذا الكشف الأثري عندما ذكر في المذكرات النص التالي: "كان مشهد المقبرة الملكية رائعاً، ويذكر أن أحد القبور الملكية، الذي ضم ما لا يقل عن ٧٤ شخصاً دفنوا أحياء في قاع المهوى الملكي العميق، بدأ عندما تم الكشف عن سجادة ذهبية اللون مزينة بأغطية الرأس لسيدات البلاط، متخذة شكل أوراق الزان وعليها آلات القيثار والقيثارات التي عزفت الترنيمة الجنائزية إلى النهاية.

لكن أهم علاقة تربط أور بالموسيقى هو أنها حكمت لـ ٤٨ عاما من قبل الملك شولكي أبن الملك أور ـ نمو وكان هذا الملك الموسيقار يعزف على ثماني آلات من بينها القيثارة ذات الثلاثين وتراً وتحمل أسم يرتبط بالمدينة وهو أور ـ زبابا. وكانت أور واحدة من أقدم مدن العالم من اهتمت بتأسيس معاهد الموسيقى وكانت تسمى في ذلك الحين بيوت الموسيقى وما ذكرته الدكتورة " دشس جيلمن" من جامعة "ليبيج في بلجيكا" يؤيد ذلك عندما ذكرت:" كان الموسيقيون فئة حرفية هامة في وادي الرافدين، وكان التلميذ غير الموسيقي موضع ازدراء زملاءه".. لهذا أدركت أور أن الرؤية القدرية للموسيقى تمثل حاجة البدء ليكون، فكانت أور تستحضر أحلامها بالموسيقى مثلما يستحضر الكهنة ألهتهم المميزون.

اليوم أور ترتقب إلى من يلتفت أليها بعد كل هذا الإهمال المتعمد وهي تنتظر يدا خيرة لتقيم على ترابها المقدس أحتفاءاً حضارياً كل عام، يستعيد فيه المحتفون تلك القيم العظيمة التي منحت البشرية إضاءات النور الأول إلى مدرك الوعي وكانت سباقة في كل شيء، وهذا يتطلب جهداً عالمياً خاصاً تشارك به كل المنظمات الوطنية والدولية وأهمها وزارة الثقافة العراقية

ومنظمة اليونسكو التي تعنى بتراث الشعوب والحفاظ عليه وسيكون على علماء الآثار والمعرفيات الفكرية الأخرى أن يأتوا إليها هنا من شتى أنحاء العالم لتقييم لهم أور كرنفالاً للثقافة والفن وكل الإبداعات الإنسانية التي تسهم في أرساء السلام والعدل بين شعوب الأرض كافة مادامت هي البدء. وأن يعنى بالمكان جيداً إذ لا تحوي المدينة اليوم أي مرفق سياحي.

ورغم أنها استقبلت منذ بدء الألفية الثالثة وحتى أطلاق صافرة العدوان الأمريكي آلاف الأوربيين الذين فرض عليهم أن تكون زيارتهم لأور يوماً واحداً لعدم وجود أماكن مبيت لائقة ومرافق خدمية. لهذا فيمكن للمكان أن يكون منطقة استثمار جيدة تعود بالفائدة إلى اقتصاد البلد والمدينة الشيء الكثير. فحتماً هذه الأرض تستحق لتكون ملتقى لثقافات الأرض كلها.

٦

الحضارة الاكادية

حضارة أكد اقصر حضارة عمرا في وادي الرافدين أقامها سركون الاكدي انتهت بموت سركون الاكدي أبدعوا إبداعا هائلا في نحت التماثيل وبناء الزقورات. (سركون الاكدي) أسس أول إمبراطورية معروفة في التاريخ

قامت حضارات العالم التي اعتمدت الزراعة في عهود تاريخية متقاربة، فالحضارة الفرعونية حلت بين ٣١٠٠ - ٢٧٧٠ ق.م أما حضارة الصين فقد حلت بين ٢٧٦٥-١١٢٢ ق.م. تطورت من عصر البرونز ثم إلي عصر الكتابة. أما حضارات (وادي الرافدين) التي عرفت في المدونات التاريخية الأوربية Mesopotamia وتعني باليونانية بلاد ما بين النهرين (الدجلة والفرات) قامت عليها حضارات عديدة طبعت آثارها الرائعة على مجرى الحضارة والتاريخ كان اولها الحضارة السومرية التي قامت بين ٣٧٠٠ إلى ٢٣٥٠ ق.م، ثم تلتها حضارة اكد بين ٢٣٥٠ إلى ٢٢٠٠ ق.م ثم حلت حضارة الانبعاث السومري ومملكة سومر وأكد المشتركة بين ٢١٣٣ إلى ٢٠٠٣ ق.م، حتى أسقطها العيلاميون من إيران عام ٢٠٠٣ ق م. ثم اسقط الكاشيون الدولة البابلية الأولى عام ١٥٩٤ ق.م. بقيت تحت سيطرة الكاشيين من ١٥٩٥ إلى ١١٥٣ ق.م، وكانوا متأثرين بشريعة حواربي حتى أزاحهم الآشوريون.

في القرن الثاني عشر قبل الميلاد كان وادي الرافدين مقسوما بين الآشورين

في الشمال والكاشيين في الجنوب. من ٦٢٥ إلى ٥٣٩ ق.م، قامت الحضارة الكلدانية (البابلية الثانية) من ٥٣٩ إلى ٣٢١ ق.م، احتل الملك كورش الإخميني مدينة بابل واتخذها عاصمة ملكه، واستمر الفرس يسيطرون على وادي الرافدين حتى هزمهم الإسكندر المقدوني الكبير عام ٣٢١ ق.م. من ٣٢١ إلى ١٤١ ق.م، سيطر السلوقيون المقدونيون وهم سلالة الإسكندر المقدوني ثم شهد وادي الرافدين في عهد المقدونيون الكثير من الحروب ثم استولى البارثينيون Parthians عام ١٤١ ق.م. هذه مقدمة لابد منها لفهم التسلسل التاريخي لحضارات وادي الرافدين.

بعد انهيار الحضارة السومرية قامت الحضارة الاكدية بين ٢٣٥٠ إلى ٢٢٠٠ ق.م (اكاد) مدينة اسسها (سركون الاكدي) واتخذها عاصمة لدولته كانت هذه التسمية تطلق أيضا على القسم الأوسط من السهل السومري في جنوب الرافدين وهي تسمية أيضا لسلالة حكمت ما يقرب من قرن ونصف القرن من الزمن.

الاكديون من أقدم الأقوام السامية التي استقرت في دلتا الرافدين ٢٣٥٠-٢١٥٩ ق م عاشوا منذ أقدم العهود مع السومريين غير الساميين جنباً إلى جنب، ثم آلت إليهم السلطة في ٢٣٥٠ ق.م بقيادة (سركون الاكدي). استطاع (سركون الاكدي) فرض سيادته على جميع مدن وادي الرافدين.. امتد نفوذه على بلاد عيلام وسوريا والأناضول جنوبا إلى الخليج العربي، فدانت لحكمه منطقة واسعة الأطراف. بذلك أسس (سركون الاكدي) أول إمبراطورية معروفة في التاريخ.

شهدت البلاد في هذا العصر انتعاشاً اقتصادياً كبيراً بسبب توسع

العلاقات التجاريـة، خاصة في منطقة الخليج. كما انتظمت طرق القوافل، كان منها طريق مهم يصل مدينة أكد -عاصمة الإمبراطورية- التي تقع في وسط وادي الرافدين، الغنية بمناجم النحاس في بلاد الأناضول، حيث كان هذا المعدن ينقل لكي يستخدم في صناعة الأدوات والمعدات الحربية.

عندما استولى (سركون الاكدي) على اور دانت له بالطاعة والاحترام لألهة المدينة، اعتبرت هذه خطوة سياسية لبقة لكسب احترام ومودة سكان اور الناطقين باللغة السومرية. كما أن المعابد التي كانت قد تهدمت لتقادمها احتفظ باحجارها لتشييد المعابد الجديدة التي تبنى احتراما وتقديرا لقيمتها الروحية. عندما نقب (ليونارد ووليي) عن الآثار في اور وجد لقية محفور عليها اشخاص منهم امرأة برداء مسبل انيق وقبعة عالية، هذه الشخصية المميزة هي (انخدوانا) ابنة (سركون الاكدي)،، وهذه ليست اللقية الوحيدة التي تحكي لنا عن هذه الأميرة رئيسة الكاهنات إذ لقي عاديات أخرى من فخاريات وأحجار كريمة وغيرها بشيء من التفاصيل عن هذه الفترة الزاهرة من اور، تحكي لنا آثار اور عن الطقوس والعادات، والتطور والتغير في تصميم الملابس وظهور ما يشبه العغال كلباس رأس للرجل والأقراط الهلالية بالنسبة إلى النساء. كما يبدو أن الأميرة (انخدوانا) كانت رئيسة كاهنات المعبد وهذا تقليد سومري حافظ عليه (سركون الاكدي)، عندما أعاد أهل اور ولكش سيطرتهم على المدينة اصبحت (اينانابيدا) ابنة اور باو هي رئيسة كاهنات المعبد ومما تجدر الاشارة اليه خلف (اور باو) في الحكم ثلاثة من أزواج بناته وأشهرهن (كوديا).

(سركون الأكدي) كان قد عمل ساقيا لكؤوس الراح (الملك أور-

زبابا) الذي حكم (كيش) في النصف الثاني من الألف الثالث ق.م جاء في أسطورة أن ولادة (سركون الأكدي) تحاكي ولادة موسى. الفترة التي عاشا بها هذان الملكان تمثل مظاهر حضارية مختلفة عن سلالة أور السومرية الأولى التي كانت تمتد حتى أوروك. كما يذكر الدكتور أحمد سوسة نقلا عن مسماريات تسنى للدولة الأكدية أن تمتد بين مدينتي ماري أو (ايبلا) في أقصى شمال سوريا حتى إيبلا (أبلة) الميناء القديم في البصرة. بسبب تواجد تلك الشعوب بلغتهم المميزة في تلك البقاع من الأرض، كان الأكديون روادا في الانتقال من صيغة الدولة المدينة إلى تأسيس الدولة الجغرافية أو الوطنية، بذلك فهي أول دولة وطنية في التاريخ.

العصر السومري الاكدي يعتبر التفوق التاريخي الأول في البناء العالي كمهارتهم في تشييد (الزقورات) أول تفوق للعمارة العمودية في فن البناء القديم. تبنى (الزقورات) في مكان خاص بعيد لتكون معبدا مستقلا يكرس لعبادة اله أو ملك من الملوك. يتألف الجزء الداخلي للمعبد من ساحة مكشوفة صغيرة يحيط بها من ثلاث جوانب صف أو صفان من الغرف المسقفة التي استخدمت لسكن الكهنة وخزن نذور المعبد وهداياه..

في مكان آخر غرفة تضم تمثال الاله ومن اشهر هذه المعابد معبد - الإله انكي- في مدينة اور. ظهرت نظريات عديدة حول وظيفة (الزقورات) منها أنها معابد للآلهة تعمل على ربط السماء بالأرض أو أنها تشبه عروش الآلهة يسكنها الإله المعبد العالي. رأى فيها البعض مراقد الآلهة الميتة، كانت إحدى وظائف (الزقورات) الرصد الفلكي خاصة في المعبد العالي لارتفاعها وتمكن الكهنة من مراقبة النجوم منها، كانت أعظم (الزقورات) السومرية لآلهة

الكوكبية كزقورة أور (القمر) وزقورة اريدو (الشمس) وزقورة اوروك (الزهرة) ثم في العصر البابلي زقورة مردوخ (المشتري). يبدو ان المعابد كانت تحتوي على حجرة خاصة بالمنجمين تعرف بـ (بت تمرتي) أي بيت الرصد حيث كانوا يرصدون القمر والنجوم.

انفردت الحضارة السومرية الاكدية باستخدامها النظام الستيني Sexagesimal system أول نظام رياضي أصبح بعدئذ الأساس الذي اعتمدته علوم الفلك والهندسة وقياس الزوايا والمكاييل. يعتمد النظام على العدد ٦٠ لأنه رقم أعلى وأعظم ليكون الرقم الرمزي للإله أن إله السماء وأعظم الآلهة. كما ان الدائرة حسب الرياضيات السومرية الاكدية مكونة من ٣٦٠ (كيش) أي درجة ولأن السنة كانت تدور على شكل دائرة في مواسمها فهي مكونة من ٣٦٠ كيش أو يوم أن التنجيم السومري الاكدي المرادف للفلك السومري الاكدي دخل في النظام الديني والسحري من خلال العرافة، بينما دخل الفلك السومري الاكدي في النظام الرياضي الستيني فافترق كل منها في اتجاه وصار التنجيم فناً والفلك علما. وضع السومريون أساساً للوقت أصبح فيما بعد الأساس حيث قسموا الشهر القمري كانت السنة تقاس على الأشهر القمرية وهي السنة القمرية وتقاس نفس السنة على الأشهر الشمسية عرف السومريون الاكديون خسوف القمر ووضعوه في ارصاداتهم الفلكية ووضعوا تفسيرا مثولوجيا له وهناك أسطورة تتحدث عن تحالف بين إله القمر وولديه الشمس والزهرة وذلك بتحريض من ابيه إنليل.

النحت في البداية حين ارتفعت التماثيل إلى مرتبة تشكل مساراً حقيقياً للنحت السومري البارز في صعوده وتألقه عبر التأريخ والى جانب التطورات

الحضارية الأخرى كاستنباط الكتابة التي سارت جنباً إلى جنب مع التطورات الأخرى. ظهرت تماثيل غير جيدة وصلت من الوركاء اثناء التنقيبات ١٩١٢ ـ ١٩١٣ في المعبد الغربي لأكد تمثل الأسرى. بدأ النحت المجسم بالحجر للأشكال البشرية في هذا العصر استطاع النحات السومري في هذه الفترة سيطرة كاملة على الحجر ليبدع بأزميله صور بشرية كاملة تمتاز بخصائص جيدة من ناحية الأسلوب، إذ يجسد قوة العضلات البارزة الذي يبرز وجه الرجل ليظهرهما من عالم آخر، استناداً إلى الوقائع التأريخية في عصر فجر السلالات السومري أن الفنان السومري توصل إلى عمل فني مجسم لرجل أو امرأة أو اله بشكل إنساني. فتمثال الغول المصنوع من حجر الكلس البلوري والمحفوظ في متحف (بروكلن) تجسيد للمخاوف التي تعتري فكر الإنسان الأول هذا المخلوق المخيف المتكون من جسم إنسان خنثوي ورأس أسد، اتجه الفنان إلى نحت رليف لحيونات أسطورية أخرى من ذوات الأربعة رؤوس كرؤوس أفاعي تفسيرها يبقى غامضاً إنما يرجع إلى تراكمات أسطورية كانت تسيطر على فكر الإنسان السومري لكنها عالية الإبداع والكمال في منحوتاته الحجرية تجلى هذا العمل في رأس (فتاة الوركاء) ابعد بكثير عن التمثيل التشكيلي للوجه كتمثيل أنثوي خالد وشعاري لسر الحالة البشرية. وكان للرأس في الأصل عينان وحاجبان مكفتان بمواد من حجر اللازورد والصدف)، الرأس يشعرنا بالرهبة والدهشة والإجلال للطريقة التي عالج فيها الفنان بازميله الحجر وحوله إلى كتلة تنبض بالحياة وباللدانة والرقة وخاصة الوجه والخدان وطرواتها اللذان ينسابان باتجاه الشفتين اللتين تريدان تبوحا بأسرارهما الخاصة وإسرار ذاك العصر.

اشتهر من بين الأمراء السومريين الاكديين في أواخر هذا العهد أمير أو الملك (جودية) الذي عرف بتماثيله الكثيرة وسعى لإحياء الآداب السومرية وتشييد العديد من المعابد الفخمة. تولى الحكم في أواخر أيام الدولة الاكدية ملوك ضعفاء لم يستطيعوا السيطرة على أجزاء الإمبراطورية الاكديه المترامية الاطراف. فانسلخت عن هيكل الدول أقاليم وأقوام عديدة فسادت الفوضى والارتباك. شجع (الكوتيون) البرابرة الجبليون الذين عرفوا في النصوص المسمارية القديمة بأنهم أعداء الآلهة غزو بلاد (سومر وأكد). حكم (الكوتيون) البرابرة من أقوام جبال زاجروس دام حكمهم ١٠٠ عام.

حل عهد مظلم اذ حطموا وحرقوا مدينة (لكش) وما جاورها. بإسقاط الدولة الاكدية وأوقعو الخراب في اغلب مدن بلاد الرافدين القديمة فساد الخراب. ودخل فن الرافدين سباتا طيلة ١٠٠ عام فتره سيطرة البرابرة. في الوقت الذي استقر في (الكوتيون) في الشمال. كانوا يواجهون التحدي باستمرار من مدن الرافدين الجنوبية. واستطاع أحد أمراء (العموريين) أن ينقذ البلاد من الفوضى ويؤسس أسرة مالكة اتخذت مدينة بابل عاصمة لها.

ومن أبرز ملوك هذه الأسرة (حمورابي) الذي استطاع القضاء على (العيلاميين) في الشرق. ضم مناطق الأشوريين في الشمال. بعد التخلص من حطام (الكوتيين) البرابرة حلت حضارة الدولة البابلية الأولى ١٨٣٠ - ١٥٣١ق.م أهم ما تميزت به إنجازات (حمورابي) التشريع القانوني الذي وضعه.

انتهي العصر الثاني من حضارات وادي الرافدين العريقة بدا من عصر الحضارة السومرية الأولي ثم عصر الحضارة الاكدية الثانية. سجلت عصر

الحضارة السومرية في مفقلة أولى. هذه المقالة تسجل عصر الحضارة الاكدية. المقالة الثالثة الآتية ستكون عن الحضارة البابلية الأولى الثالثة في التسلسل التاريخي في وقت قريب بإذن الله.

توما شماني

٢١٥٩ ق.م) بمدينة أكاد (تأسست عام ٢٣٧٠ ق.م.) شمال بلاد بابل علي الجانب الأيسر من نهر الفرات. عاشوا منذ أقدم العهود مع السومرين. وآلت اليهم السلطة في نحو (٢٣٥٠ ق.م) بقيادة زعيمهم سرجون الأول وجعل أكد عاصمته عام ٢٨٠٠ ق.م. استطاع سرجون الاكدي أن يفرض سيادته على جميع مدن العراق. ثم بسط نفوذه على بلاد بابل وشمال بلاد مابين النهرين وعيلام وسوريا وفلسطين والأناضول وامتد إلى الخليج العربي، حتى دانت له كل المنطقة. وبذلك أسس أول امبراطورية معروفة في التاريخ وجعل اللغة الأكادية تحل محل السومرية وهي لغة خليط من السامية والسومرية. وظلت اللغة الأكادية سائدة في الشرق الأدني طوال سنة ٢٠٠٠ ق.م. وكان يطلق عليه (شروكين) أي الملك الصادق. ويقال أن أمه كانت من نساء المعبد ولما ولدته وضعته في سلة وألقت به في مياه الفرات حيث عثر عليه بستاني ورباه. إستهوت الطفل الآلهة عشتار فشملته بعطفها وحبها. شهدت البلاد في عصره انتعاشاً اقتصادياً كبيراً بسبب توسع العلاقات التجاريـة خاصة مع منطقة الخليج العربي. كما انتظمت طرق القوافل وكان أهمها طريق مدينة أكد العاصمة بوسط العراق الذي يصلها بمناجم النحاس في بلاد الأناضول، وكان النحاس له أهميته في صناعة الأدوات والمعدات الحربية.

أكـّاد إحدى حضارات بلاد ما بين النهرين. تمركزت ٥٠ كم إلى الجنوب الغربي من بغداد. عرفت الحضارة الأكدية أوج عظمتها بين القرنين الرابع والعشرين والثاني والعشرين قبل الميلاد وذلك قبل الحضارة البابلية. وعرف الأكديون بغزواتهم وسطوة ملكهم سرجون (٢٣٣٥ ق.م. – ٢٢٧٩ ق.م.) الذي امتدت مملكته ما بين إيلام في إيران والبحر المتوسط.

وسنتكلم هنا عن شخصية لازالت سيرتها إلى الآن رغم قدمها، إذ تعود إلى قبل ميلاد سيدنا المسيح عليه السلام بحوالي ألفين و ٣٠٠ عام، هو مؤسس الحضارة الأكدية التي تلت الحضارة السومرية في وادي الرافدين ومن أشهر ملوكهم الذين وصلتنا أخبارهم مكتوبة على الألواح الطينية.

هناك عدة روايات عن مولد سرجون الأكدي وأكثرها انتشاراً أن أم سرجون حملت به، وعندما ولدته لم تكن تريد الحفاظ عليه وتربيته لعدم قبل أما لعدم استطاعتها من الناحية المادية وأما لأنها كانت تود أن تتفرغ للكهانة إذ أنها كما يقال كانت كاهنة، فصنعت صندوقا-تابوتا- من قصب، وضعت فيه ابنها ورمته في النهر. فحملت مياه النهر الصندوق وأوصلته إلى بيت فلاح فقير، فالتقطه، وبسبب فقره لم يستطيع تحمل مسؤولية الأنفاق عليه فحمله إلى بيت الملك السومري. ولذا فإن الملك السومري ربى سرجون وقربه إليه وتبناه فجعله ابناً له وسماه سرجونا، وأصبح هذا من أكثر المدللين والمحبوبين عند الملك. وعندما كبر سرجون وترعرع ارتفع نجمه العسكري وبزغ فقام بانقلاب ضد أبيه الملك، فنحاه عن الحكم وقضى على الدولة السومرية ثم أنشأ الإمبراطورية الأكدية.وفي رواية أخرى يقال أن والداه كانا رعاة أغنام وكان دوماً يتأمل مدينة كاش كلما ذهب للرعي ولأن الكلدان لا يستطيعون دخول تلك المدينة فقد هرب سراً وطرق بوابة الملك السومري ليطلب منه العمل عنده دون مقابل وبالفعل قبله كخادم عنده في بلاطه وبعد ذلك أصبح صديقاً للملك وبعدها قتل الملك وأخضع الجيش له..

وفي مدونات العصر الآشوري الحديث (القرن السابع ق.م) وجدت أسطورة عن أصل سرجون وطفولته جاءت على لسان هذا الملك أي بضمير المتكلم إذ يقول: أنا سرجون الملك العظيم ملك أكد، كانت أمي كاهنة عليا ولم أعرف أبي الذي كان متجولا، وكان أعمامي يعيشون في التلال، فأصلي من مدينة (آزوفرانو) أي الزعفران على الفرات، وحملت بي أمي ووضعتني سرا وأخفتني في سلة مقيرة من الحلفاء وغطتها ورمتني في الماء فلم يغرقني النهر بل حملني إلى (آكي) ساقي الماء فانتشلني (آكي) بدلوه ورباني واتخذني ولدا له وعينني بستانيا عنده. وبينما كنت أعمل بستانيا أحبتني الآلهة عشتار فتوليت الملوكية مدة.. وحكمت أصحاب الرؤوس السود وقهرت جبالا كثيرة بفؤوس البرونز، وغزوت الأقاليم البحرية واستوليت على دلمون (البحرين حاليا).

كانت أم سرجون من طبقة عليا من الكاهنات تدعى الواحدة منهن (أينتم) وقد حرم عليهن الزواج ما دمن أثناء خدمتهن الدينية كما حرم عليهن إنجاب الأطفال على غرار نظام الكاهنات العذارى في رُوما القديمة، ولذلك اضطرت أمه إلى رميه في النهر والدعاء له بالنجاة والنجاح..

سميّ سرجون في القطع الأثرية التي عثر عليها بأسم شروكين أي العادل وكان يطلق على نفسه.. (شار كيرات اربعيم).. أي ملك الجهات

الأربعة لما له من خيال إن كل ما كان في اتجاهات مملكته فهو خاضع لسلطانه فقد أمتد سلطانه كما تبين أكثر النصوص من وسط إيران وحتى حدود مصر القديمة،

سرجون الأكدي بنى سرجون أضخم جيش في التاريخ القديم. وهو أول من وحد العراق في مملكة واحدة.عام (٢٣٥٠ ق.م) وهو أول من عرف الإدارة والتنظيم الإداري الناجح فقد تم تعيين القضاة وأصبحت أحكامهم ملزمة كما ابطل سرجون تولي منصب حكام المدن بالوراثة. سرجون من الأكديين وهم فرع من الأقوام التي نزحت من الوطن الأم شبه جزيرة العرب إلى العراق ربما في أوائل الألف الثالث قبل الميلاد أو قبل ذلك بقليل.ويرجح علماء الآثار والجيولوجيا والتاريخ أن سبب هجرة هذه القبائل من جزيرة العرب هو تغير المناخ حيث انتهت الدورة المناخية الممطرة الخصيبة (الدورة الجليدية الرابعة) ودخلت الكرة الأرضية في الدورة الدفيئة الحارة (الدورة الدفيئة الثالثة) - الدورتان الجليديتان الأولى والثانية متلاصقتان لا يفصل بينهما دورة دفيئة - وبسبب تغير المناخ إلى حار جاف أصبحت أرض الجزيرة العربية مجدبة شحيحة الإمطار طاردة للسكان بينما الجهات الشمالية المتصلة بجزيرة العرب تحسنت بيئتها وذابت عنها صفائح الثلوج، أما أوروبا فأصبحت خضراء ممطرة معتدلة المناخ حيث ذابت أكثر جبال الثلوج الهائلة التي تغطي أراضيها.ولما نزحت هذه القبائل العربية من جزيرة العرب استوطنت في بداية هجرتها على ضفة نهر الفرات الغربية، في الأرض الممتدة بين مدينة دير الزور ومدينة هيت المتاخمتين لبادية الشام، ثم فيما بعد انحدرت مجاميع كبيرة جدا من هذه القبائل العربية إلى جنوب

العراق، واستوطنت بلاد ما بين النهرين ميسوبوتاميا Mesopotamia واستقرت في جنوب العراق ما بين نهري دجلة والفرات، واختلطت هذه القبائل بالسومريين السكان الأصليين وعاش أبناؤها تحت حكم دويلات المدن السومرية السومريون من الأعراق القديمة المتوطنة بجنوب العراق منذ فجر التاريخ ولحد الآن لم يتوصل العلماء إلى نسبهم ومكان قدومهم الأصلي، وبعد مضي عدة قرون كون أبناء هذه القبائل العربية المهاجرة لهم عدة ممالك بالعراق على انقاض الدويلات السومرية وتسموا باسم الاكديين نسبة إلى عاصمتهم مدينة اكد الواقعة جنوب العراق.. عرف القسم الأوسط والجنوبي من العراق منذ ذلك الزمن باسم بلاد (سومر وأكد).

حكم مؤسس السلالة الأكدية سرجون ٥٦ عاماً أدخل خلالها الكثير من الإصلاحات على نظام الحكم والجيش بما في ذلك تطوير أساليب الحرب والسلاح. وكذلك حصل تقدم عظيم في العمارة والفنون بعامة التي تميزت في العصر الأكدي بالقوة والحيوية والحركة. واتخذت هذه الحضارة شكلها السياسي والثقافي المتكامل وكانت لغتهم هي الأكدية لقد اتخذت هذه اللغة تكوينها الثقافي والكتابي من خلال استيعابها اللغة السومرية بما فيها من ثقافة ومعتقدات دينية والخط المسماري السومري. أصبحت الاكدية (بلهجتيها البابلية والآشورية) لغة العراقيين الرسمية لما يزيد على الألفي عام، وخلفت لنا الآلاف المؤلفة من النصوص والوثائق الطينية التي سمحت لنا بمعرفة كل شيء عن حياة العراقيين. وكما يعبر عن ذلك المؤرخ والعالم الفرنسي المعروف (جان بوتيرو): "إننا نعرف عن حياة العراقيين في تلك الفترة أكثر من معرفتنا عن حياة الأوربيين خلال العصور الوسطى"!! وهذا دليل على

مدى تعلق العراقيين بالكتابة والكتاب، بالإضافة إلى اللغة الموحدة فأن هذه المرحلة تميزت أيضا بالدين الموحد السائد في الشمال والجنوب طيلة عشرات القرون.وكان دينهم قائم على أساس (عبادة الكواكب) وما تتضمنه من معتقدات وأساطير والهة متعددة ممثلة للكواكب ومسئولة عن حياة الإنسان والطبيعة. وهذا الدين شكل أساس نظام الأبراج وعلم التنجيم.

كانت أبنته أول شاعرة في التاريخ البشري الأميرة (انخيدوانا) التي وجدت قصائدها مدونة على الطين ومنها قصيدة (سيدة النواميس الإلهية) وقصيدة (رثاء أور).

٧

تاروت أرض الحضارات

تكاد تكون آثار الاستيطان البشري في المنطقة الشرقية أكثر وضوحاً منها في آخر جزء بالمملكة وسبب ذلك يرجع إلى عدة عوامل أهمها اشتهار المنطقة لتوسطها بين مراكز الحضارات القديمة وإشرافها على جزء كبير من ساحل الخليج العربي الذي سبق وأن لعب دوراً هاماً في مجالات الاتصالات البشرية والتجارية وبين شعوب تلك الحضارات منذ أكثر من خمسة آلاف سنة فقد انطلقت من شرق الجزيرة إشعاعات ثقافية امتزجت مع ثقافات الأقطار المجاورة، فتكونت منها دوائر حضارية كانت ذات شأن في تاريخ الشرق القديم.

وكأن من البديهي أن تنعكس آثار تلك الإسهامات في أرض المنطقة ذاتها على شكل مستوطنات ومخلفات تؤكد نتيجة ذلك العطاء عند ما قامت حضارات زاهية على طول الساحل الشرقي وما سامته من الأرض وخصوصاً نحو الشمال حيث تمخضت عنها حضارة سومر التي تعود إلى الألف الخامس قبل الميلاد والتي كانت المقدمة الأولى للحضارة الإنسانية بين النهرين.أما في الشمال الشرقي لمنطقة الخليج فهناك مركز الحضارة العيلامية (الفارسية القديمة) التي تعود إلى نفس الفترة والتي قامت في (سوزا) وما جاورها من بلاد فارس، حيث التقت شرقا حضارة نهر السند الشهيرة بحضارة

موهنجودارو والتي لازال العلماء يختلفون كثيراً في تحديد نشأتها وامتدادها، على الأرجح فأن تاريخها يرجع إليماقبل ٤٥٠٠ سنة تقريباً. وبالطبع جميع هذه المناطق الحضارية ظلت مع المنطقة في إطار تبادل تجاري وثقافي عبر القرون حسب ما أوضحت تلك الأبحاث والدراسات الحديثة التي قامت في أقطار ساحل الخليج شمالية وشرقية.

جزيرة تاروت:

جزيرة تاروت تقع على الخليج العربي مما يلي القطيف بالمملكة، وتتصل بالقطيف بجسر طبيعي بطول أربعة كيلومترات، وتقع مدينة تاروت التاريخية في قلب الجزيرة ومن أهم مراكزها:سنابس في الشرق، ودارين في الطرف الجنوبي والربيعية في الوسط، وقد اكتشف بالجزيرة آثار هامة يرجع بعضها إلى فترة عصر فجر السلالات الأولى لبلاد مابين النهرين (أي قبل مدة تتراوح بين ٤٠٠٠و٥٠٠٠ عام)، أما البعض الآخر فيعود إلى فترات زمنية مختلفة معاصرة للحضارة العيلامية، وحضارة أم النار التي قامت بالمنطقة الجنوبية من الخليج العربي والتي تم اكتشاف بقاياها في أبو ظبي بواسطة البعثة الدنمركية سنة١٩٦٦م أو الأبحاث الجديدة.

أما بالنسبة للعصور الزمنية القديمة التي سبقت نشوء الحضارات فقد عثر بالمنطقة على العديد من المستوطنات التي تعود إلى فترة العصر الحجري وما تلاه من الأزمنة التي تطورت خلالها حياة الاستقرار وصنع الفخار، وتنتشر مواقع العصر الحجري في كل من واحة يبرين في جنوب المنطقة الشرقية والتي تعود فترتها الزمنية إلى عشرة آلاف سنة سابقة، وعلى مشارف الربع الخالي، وعين دار وكذلك الجزء الشمالي من المملكة على امتداد وادي

الباطن، وكل تلك الدلائل المشار إليها تؤكد ما أسلفناه عن قيام تبادل ثقافي مع البلدان المجاورة، وهو نفس ما يستفاد من الأبحاث الأثرية التي أجريت في واحة القطيف والأحساء والتي أسفرت عن وجود مواقع سكنية تعود إلى ما قبل الألف الخامس قبل الميلاد وتتصف بانتمائها إلى عصر العبيد (بضم العين) التي نشأت في جنوب بلاد مابين النهرين (العراق حالياً) وكون القاعدة الأساسية التي بنيت عليها حضارة السومريين هناك، فمواقع العبيد منتشرة في المنطقة الشرقية على مقربة من قرية المراح بالأحساء مثلاً عثر على موقع من عصر العبيد من طبقات سكنية متعددة يعود قديمها إلى فترة العصر الحجري الحديث الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأن ثقافة العبيد نفسها تطورت ثم انتشرت شمالاً إلى بلاد مابين النهرين. ويؤكد هذا الاعتقاد اكتشاف مواقع أخرى من عصر العبيد تعود إلى فترة زمنية لاحقة في كل من منطقة الدوسرية جنوب (الجبيل) وعلى تل أبو خميس بمنطقة رأس الزور.

فبوادر الاتصالات الثقافية والتجارية بين مراكز الحضارات المحيطة بالخليج العربي يمكن رؤيتها أيضاً في منطقة جنوب الظهران والذي تعود فترته الزمنية إلى الألف الثاني والثالث قبل الميلاد، حيث عثر على عشرة أختام أثبتت العلاقات التجارية والاتصالات بين تلك الدول القديمة في تلك الفترة مثل بلاد الرافدين والهند والسند وبلاد فارس، ويمكن مشاهدة بعض هذه الأختام في المتحف الإقليمي بالدمام، واستمر هذا الدور من العلاقات إلى القرن الثالث قبل الميلاد، والتي تأثرت به الممالك العربية القديمة مع الحضارات السائرة على الجزيرة كالحضارات الهلنسية (الإغريقية) والرومانية والساسانية والتي تفصح عنها عدة معالم أثرية في المنطقة.

أن أول نص متقدم ورد فيه اسم لتاروت هي إشارة المؤرخ اليوناني كلوديس بطليمي – بطليموس (Claudius Ptolemy) بأنها سميت في الخريطة بـ « ثارو Tarro» وكأن هذا الدليل اليوناني الأول أما بالنسبة للصينيين فقد وردت في كتاباتهم القديمة tarrout – taru – taro – tarouh، مع أن خريطة بطليموس من التي يعتمد عليها في جغرافية الشرق القديم لأنها تحمل أسماء مدن وأنهار وقبائل وجبال، وخارطته لبلاد العرب الميمونة لا توضح شبه جزيرة قطر بينما توضح لنا البحرين جزيرة صغيرة!!.. وقد وردت تسمية جزيرة تاروت عند كثير من الأقوام حسب اختلاف لغاتهم التي عاصرتها بها يجود لفظ – تيروس – tyrus– وتاروس –tarrus–وتارو tarru– وثارو tharro، وصحفت تاروت وطاروت وطارود « tarot or tarrout or tarut o tarout»، وغيرها من التسميات التي أطلقتها كل أمة على هذه الجزيرة حسب لغتها القومية وهي تعتبر واضحة المعالم، فأنها مشتقة من اسم (عش تاروت) أو (عشتاروت) أو (عشتروت) أو (عشتروته) وهذا ما يتضح أنه الاسم الأصلي لهذه الجزيرة.

وعندما كأن الفينيقيون يقطنون هن في الخليج العربي أطلقوا هذا الاسم على هذه الجزيرة نسبة لمعبودتهم (عشتاروت) معبودة الحب والجمال، بينما لم نتوصل حتى الآن إلى تسمية الجزيرة قبل هذه التسمية الفينيقية، وما يبديه الاسم لنا لا اعتقد في نظري أن جزيرة تاروت كانت تمثل مركزاً سياسياً بالنسبة للفينيقيين فقد دلت النصوص الأثرية بأن المراكز السياسية كانت في بلاد وادي الرافدين وما أراه واضحاً حسب ما أعرفه حالياً أن جزيرة تاروت كانت مركزاً دينياً ومحجة للفيانقة، وقد أخذ الفينيقيون تسمية مدنها

القديمة إما بتسمية متشابهة لها في المعنى، أو محرفة عنها، وقد تتدخل في المعنى أو بإضافة تسمية أخرى كما هو الحال في عصرنا حيث يضاف للمدن الجديدة بعض الكلمات كاسم الحاكم مثلاً، أو المنطقة، أو كلمة جديدة، بينما التسمية هي نفس التسمية القديمة، وقد أورد الشيخ محمد بن صالح الفارس فقال: ولقد دلت.آثار الفيانقة على حضارة زاهرة باهرة، كما أنهم كانوا كالبدو الرحل، دأبهم الترحال والنزوح من بلد إلى آخر ومما عرف أنهم كانوا يطلقون اسم البلد السابق على اللاحق، وهذا الكلام لا غبار عليه كما هو واضح من النصوص الجغرافية والأثرية التي تتبع تاريخ الفينيقيين.

وقد ذكر الأستاذ محمد سعيد المسلم في كتابه (ساحل الذهب الأسود) قال أن تسمية الفينيقيين مشتقة من كلمة « فينيقس pheinicies » وهو لفظ يوناني معناه النخيل وقد أطلق اليونانيون هذه التسمية على الفينيقيين حتى غلب عليهم فعرفوا واستدل الأستاذ المسلم على هجرتهم ونزوحهم من هذا المكان إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط بعد أدلة منها أنهم سموا المدن التي يسكنوها هناك بأسماء المدن التي هنا مثل يود تاروس،أي تاروت ودارين، وتايلوس أي دلمون والخط الجبيل وسنابيوس أي سنابس وهي إحدى قرى جزيرة تاروت وهي إحدى جزيرة البحرين وكذلك أراديوس في البحر الأبيض المتوسط وهي عراد في جزيرة البحرين وكذلك من التسميات في الخليج نجد الأزوار وهي الانحناءات أو المنعطفات الهلالية في رؤوس الأرض وأطرافها من اليابسة، فهناك الأزوار في البحرين والكويت وقطر بالإضافة إلى شرق المملكة، فالزور قرية في جزيرة تاروت وقرية في جزيرة فيلكا وغيرها الأزوار.

قلعة تاروت:

والقلعة تتكون من بناء شبه بيضاوي غير منتظم الشكل، ولها سور خارجي دعم بأربعة أبراج مخروطية بقي منها البرجان الغربيان، وقد جرى آخر ترميم لهذه القلعة من قبل وكالة الآثار عام ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

وأقدم ذكر لهذه القلعة ورد في الوثائق الخطية البرتغالية والعثمانية، فتذكر الوثائق البرتغالية أن مجموعة القوات البرتغالية تمركزت في جزيرة تاروت، وسارعت إلى ترميم القلعة في السادس من شهر محرم عام ٩٥١هـ. ومن المؤكد لدينا أن القلعة قديمة استغلت لفترة قصيرة من قبل القوات البرتغالية ثم العثمانية ورغم أنه ليس لقلعة تاروت ذكر في المصادر التاريخية القديمة فإنه من الأرجح أنها ربما كانت من قلاع الدولة العيونية خلال المدة ٤٦٩-٦٣٩هـ. شيدت هذه القلعة فوق أنقاض أساسات مبان قديمة تعود إلى الألف الثالثة ق.م حيث يمكن للزائر أن يشاهد تحت أساسات القلعة مجموعة من الحجارة المصقولة والمتراصة بشكل منتظم تمثل مبنى أقدم، يقع إلى جوار هذا المبنى نبع ماء عميق يتصل بقناة تؤدي إلى بركة حجرية مكشوفة مما حدا بالبعض أن يرجح أن المبنى ربما كان هيكلاً للمعبودة الوثنية عشتاروت أو عشتار- معبود شعوب الخليج العربي وبلاد وادي الرافدين منذ عصور فجر السلالات- التي أشتق اسم المدينة تاروت منها.

أما عن أهم المواد المكتشفة تحت أساسات القلعة فهي: تمثال من الحجر الجيري يحمل سمات التماثيل المميزة التي تنتمي للحضارة السومرية، وإلى جانبه مجموعة من الأواني الفخارية ذات اللون الأصفر البرتقالي من فخاريات فضر السلالات الأولى ٢٩٠٠-٢٧٥٠ق.م، وأوان أخرى كبيرة

ذات أبدان جؤجئية وحواف مثلثة الشكل تمثل الأنواع المميزة للفخاريات (جمدت نصر) في بلاد ما بين النهرين، بالإضافة إلى تشكيلة من فخاريات دلمون وباربار المضلع الشكل، وهي فخاريات تنتمي إلى الألف الثالث ق.م بينما عثر في الطبقات السفلى على كسر لأوان فخارية تنتمي لحضارة العبيد.

وتتوزع المواد الأثرية المكتشفة على أربعة أدوار تاريخية تمثل مراحل الاستيطان بالموقع، وتعود أقدم هذه المراحل إلى فترة حضارة العبيد الثانية (٤٣٠٠-٤٠٠٠ق.م)، واستمر الاستيطان بالموقع حتى الألف الثالث ق.م حيث حضارة دلمون التي يعود أحدثها بالموقع إلى فترة باربار المتأخرة، وعلى هذا فإن موقع القلعة يقع بين الفترة ٤٣٠٠ق.م حتى ٥٠٠ق.م.

البيئة في منطقة الخليج العربي

لقد هيأت البيئة في منطقة الخليج العربي بنية طبيعية وإمكانات اقتصادية وموقعاً جغرافياً جعل منها موطناً مناسباً للإنسان منذ بداياته، فقد عرفها منذ أن كان بدائياً وعاش فيها حجرياً. وعندما تطورت معارفه جعل منها لبداية حضاراته القديمة موطناً. وقد ظهر الإنسان الأول في الخليج مع خروجه في الجزيرة العربية موطن الإنسان الأول، وظهور الإنسان الأول في الخليج العربي مقروناً بظهوره ببعض أجزاء الجزيرة العربية الأخرى.

والخليج بموقعه يمثل جزءاً من المساحة التي تغطيها الجزيرة الغربية ويوجد فيه من الإمكانيات الحياتية ما جعل منه على ما يبدو مهداً للجنس البشري الأول كما اعتقده بعض المؤرخين والذي انتشر في جهات متقاربة من العالم في نهاية العصر (اليوسيني) قبل نحو مليوني سنة تقريباً. وقد عاش

الإنسان القديم في الخليج العربي بدائياً تتحكم فيه الطبيعة، تغلبه تارة، وتارة يغلبها، واتخذ غذاءه من الأسماك التي يجدها ميتة على شواطئ الخليج بعدما تقذفها أمواجه أو ما يصطاده منها بطريقته البدائية، وقد كشفت الدراسات الأثرية أن سكان السواحل القدماء اعتمدوا في غذائهم اعتماداً يكاد يكون تاماً على صيد الأسماك والحيوانات المائية وجمع الأعشاب البحرية. ولوجود شجرة النخيل في واحة القطيف ومناطق أخرى من الخليج العربي بكثرة ووفرة، اعتقد أن الإنسان البدائي في منطقة الخليج عرف الاستقرار في بداياته في الواحة والمناطق المشابهة لها في نفس الإقليم (مثل هجر) وجزر (البحرين) و(العين) في دولة الإمارات. وساعده على ذلك توفر المياه ووجود اشجار النخيل فيها بكثرة.

وقد ذكر (هنري ماشي) المنطقة وعد من ضمن ما يتوفر بها، أشجار النخيل، وقال: إن المنطقة بسبب كثرة النخيل فيها غدت ثروتها من شجر التمر الذي صار مضرب الأمثال. وقد لعبت أشجار النخيل في واحة القطيف وبعض الأقاليم الأخرى في منطقة الخليج، دوراً بارزاً في استقرار الإنسان البدائي في المنطقة، فساعدته مثلاً في بناء العشش والأكواخ من سعف النخيل، مما جعلها مأوى له بعد عناء طويل من البحث عن القوت، ومكاناً يخلد فيه للنوم والراحة، وملاذاً يحتمي به من حر الشمس وبرد الشتاء والكوارث الطبيعية الأخرى.

وبما أن بعض الأشياء تلد نتيجة الحاجة إليها. فقد أدخل إنسان الخليج العربي الأول في حياته بعض التطور، وعرف صناعة القوارب بشكل بدائي، وساعده على ذلك التطور عاملان أساسيان: أحدهما: ما وجده متوفراً

لصناعتها من سعف وجذوع النخيل، والآخر: حاجته لها لمساعدته في صيد الأسماك التي كان تعتبر من غذائه الأساس.

ولعل من صفات القوارب البدائية التي أجاد صناعتها إنسان واحة القطيف البدائي خاصة والخليج عامة، ما هو موجود الآن على سيف البحرين والمصنوع من جريد سعف النخيل المسمى (بوبريه) والموجودة أيضاً في منطقة الشهوية في رأس مسندم بسلطنة عُمان، أو المستعملة في الأمس القريب في ساحل الباطنة والتي تصنع من جريد النخيل بحيث تربط حزمتان معاً في الطرف الأصغر لتشكل المقدمة، أما الأطراف الغليظة فتضم معاً لتشكل هيكل قارب يملأ بلحاء النخيل وجوز الهند وبطول لا يتجاوز اثني عشر قدماً يستخدمه نفر أو نفران معاً، ويجلسان نصف عائمين في الماء. ومن القوارب الشبيهة بقارب إنسان الخليج الأول، القارب الذي يستخدمه سكان سومطره، والذي ينصع من ثلاث خشبات، تكون الوسطى أطولها، وينتشر استعمال هذا النوع بمسقط عُمان. وهناك قارب (الهوري) الذي يصنع من خشبه واحدة ولا يزال يستعمل في منطقة الخليج على نطاق واسع، ولا تزال توجد بعض الأشياء البسيطة التي يستخدمها الإنسان الحالي في الخليج العربي، يعتقد أنها من فكرة الإنسان البدائي الذي عاش في منطقة الخليج العربي، كـ(الحضور) التي تعمل داخل البحر من جريد النخيل و(المساكر) التي تقام بشكل حواجز من الصخور ليملأها الماء أثناء المد وتقوم بحجز الأسماك أثناء الجزر، و"الشباك" التي تستخدم على نطاق واسع في منطقة الخليج لصيد الأسماك وتعرف باسم "الغزل" في واحة القطيف وأقاليم أخرى.

وإضافة إلى ما سبق هناك عادات في بعض مناطق الخليج العربي لا يزال بعضها موجوداً إلى يومنا هذا، كلبس "المثفر" أثناء النزول في الماء والذي لا يستر سوى العورة من الأمام والخلف، ويشد طرفاه بخيط يربط تحت السرة على البطن، ويعرف باسم "البريم". وهناك لبس "الوزار/ الإزار"، ونقل العصا في اليد أثناء السير في الطرقات أو الجلوس في المقاهي. ونراه بشكل أكثر انتشاراً في دولة الإمارات وعُمان، وهناك عادة أكل الأسماك واللحوم المجففة بالأملاح، وأكل بعض الأعشاب وخاصة عشبة "الحميض" التي تنمو بقرب السواحل في بعض مناطق الخليج.

ولا يستبعد أن تكون صورة الإنسان البدائي في المنطقة كصورة الإنسان الذي وصفه "أريان" وهو يكتب عن القبائل ما بين كراتشي وأرمار الحديثة إذ يقول عنهم: "كانت لهم رماح طويله الواحد منها طوله ستة أذرع، ولكن أطرافها لم تكن من الحديد وإنما كانت من الخشب المبرى والمقسى بالنار، فلم يكن لديهم جديد، كما أن ملابسهم كانت من جلود الحيوانات الوحشية، أو جلود الأسماك الكبيرة، وقد وجد لهم شعور طويلة تغطي كل أجسادهم تماماً، كما وجد لهم أظافر طويلة حادة أشبه بمخالب الحيوانات المتوحشة. وينقل "نيرشوس" وصفاً لقبائل الساحل البلوشستاني حينما أبحر في الخليج العربي عام (٣٢٥ ق.م) فقال أنهم يستخدمون جلود الحيوانات ملابس لهم، ولا يعرفون سواها ولا يوجد لديهم حديد.

ويجمع المؤرخون على أنه التقت على الخليج العربي ومنذ البداية عناصر مختلفة من سلالات الإنسان البدائي الأول، يقسمها المؤرخون إلى ثلاثة أجناس:

١- العنصر "الدرافيدي": وينتمي إلى الجنس الاسترالي القديم، وكان أفراد هذا الجنس قد توجهوا في طريقهم إلى القارة الهندية، وهناك من يقول أن دماءهم ما زالت واضحة في جماعات البلوش الذين يعيشون حتى الآن في ساحل مكران.

٢- العنصر الخاص أو الأسمر "الكوشيه": وهم من شرق أفريقيا وهناك من يمثله حتى وقتنا الحالي في سواحل عُمان.

٣- العنصر البيض أو المغولي "جنس البحر البيض المتوسط": وهو من أخلاف العنصر الشمالي "المهاجر الأول" فقد وفد أفراد هذا العنصر إلى حوض الخليج العربي في وقت متأخر نسبياً، فقد استقروا أصلاً في وسط آسيا وعلى ما يبدو أنهم عاشوا في عزلة كاملة حتى بعد العصر "الجليدي الرابع" وظهروا على مسرح الأحداث كجيش منظم مثقف، ويحدد زمن مجيئهم بظهور الحضارات القديمة التي ظهرت في أرض ما بين النهرين منذ (٤٠٠٠ عام ق. م)[11]. ومن اختلاط هذه السلالات المكونة من ثلاثة أجناس تكونت التركيبة السكانية لمنطقة الخليج العربي قبل (٥٠٠ عام ق. م) والتي ينتمي إليها سكان الخليج الذين ورد لحضارتهم ذكر في مناطق الخليج المختلفة والتي تنتمي إلى نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، بعدما كشفت عن أسرارها البعثات الأثرية التي تولت التنقيب في مختلف مواقع المنطقة.

ويعتقد المؤرخون أن إنسان الخليج العربي الأول طرأ على حياته بعض التطور ودخل عصراً خشبياً وآخر صدفياً، ويعتمدون ما رواه "أريان" و"نيرشوس" عن القبائل التي مرا بها وشاهدا ضمن ما تستخدمه تلك

القبائل في سد بعض حاجياتها: الأخشاب والأصداف. وربما يكون إنسان الخليج العربي قد دخل أيضاً عصراً "حجرياً بدائياً" أقل تطوراً من العصر الحجري "الأسفل" الذي لا يستبعد أن تكون نهايته مع بداية العصر "الجليدي الأول" الذي بدأ منذ مليون سنة تقريباً. وبطبيعة الحال كان الإنسان الخليجي في أطوار نشأته الأولى مقيداً في معيشته ومسكنه وتطوره، ولكنه ما لبث أن غير أسلوب حياته وبدأ يطور قدرات جديدة ويستعمل أدوات جديدة ويتحلل من قيود الارتباط بموطنه الأصلي فيهاجر، ولابد من وجود عامل دفع ذلك الإنسان إلى الابتعاد عن موطنه الأصلي، ومما لاشك فيه أن حدوث التغيرات المناخية والكوارث الطبيعية والبحث عن الطعام الوفير، إضافة إلى نشوب الحروب والغارات دفعته إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة وبسرعة وعلى نطاق واسع، ولعله وصل إلى الهند والصين وجنوب آسيا وكذلك استراليا في هجراته البدائية التي اتخذ لها طرقاً ومسالك برية وبحرية، استخدم فيها القوارب البدائية لهجرته ولعله كان أول إنسان وصل إلى جزيرة سومطره وجاوه وكذلك قارة استراليا.

لقد عرف سكان الخليج الهجرة منذ زمن موغل في القدم، وخلفوا وراءهم الكثير من الآثار والبقايا إلا أن أغلب ما خلفوه اندثر وعفت معالمه أو أنه انطمر بسبب الزوابع الرملية التي غمرت سطح الأرض مع تعاقب الأزمان إلا أن البعثات الأثرية التي قامت بمسح لبعض المواقع في منطقة الخليج أكدت أنها وجدت كثيراً من القطع الحجرية المختلفة التي استخدمها الإنسان البدائي في الخليج العربي والتي تضيف لتؤكد أنه عاش العصور الحجرية بمختلف أدوارها في المنطقة.

وكان أرنولد تونبي يقول: "كلما وقفت أمام حجر يحكي قصة حضارة قديمة، كنت أبكي، فكتبت عن العلاقة بين الحجر والإنسان". وقال: لولا الجبال وأحجارها ما عرفنا أن حضارة ما قامت". كان الإنسان ذكياً عندما قطع الأحجار من الجبال ونقش عليها وبنى حضارته من غابر الأزمان، فشيد بيته في الحياة الدنيا والآخرة، وكانت الأهرامات أعظمها في رحلة الآخرة وكان سور الصين أحد عجائب الدنيا التي تحكي صمود الحجر وعظمة الحضارات. ويقول أحد المؤرخين أن العصور الحجرية يقصد بها بداية حضارة الإنسان البدائي حيث استطاع أن يصنع شيئاً بيده عن قصد ورغبة معتمداً أساساً على أدوات حجرية بدائية كان يشكلها بما يناسب مطالبه واحتياجاته المحدودة، وأن يستخدم إلى جانب ذلك أدوات أخرى أقل بقاء منها، اتخذها من فروع الشجر ومن عظام الحيوانات الكبيرة وقرونها وأنيابها الضخمة، وكذلك الأصداف البحرية الكبيرة.

وقد قسم علماء الطبقات والحفاير العصر الحجري إلى "ثلاثة أدوار" بين عليا ووسطى وسفلى يتراوح تاريخها بين خمسة وسبعين ألف سنة وستمائة ألف سنة، حيث نسب إلى الطبقة العليا منه بقايا الإنسان التي وجدت في الأقاليم الغربية من القارة الأوروبية. ونسب إلى الطبقة الوسطى بقايا الإنسان التي وجدت في أواسط القارة الآسيوية بين الصين وبلاد الملايا. ومثلها في القدم بقايا الإنسان في أقاليم الجنوب الأفريقي، والمتمثلة في جمجمة وجدها الدكتور "ليكي" في شهر يوليو سنة ١٩٥٩م.

ومنذ الأيام السحيقة عرف إنسان واحة القطيف خاصة ومنطقة الخليج عامة، الحجر واستخداماته مع أدواته البدائية وطور صناعته وعايش جميع

أدواره، وبداية العصر الحجري في المنطقة لا يعرف لها زمن معين وكل ما يقوله العلماء عنها ما هو إلا تخمين، إذ لا زالت الحفريات مقتصرة على مناطق معينة. لكن الدلائل تشير إلى أن الاستيطان البشري في منطقة الخليج العربي التي تعتبر واحة القطيف جزءاً منها أكثر وضوحاً منها في أي جزء من أجزاء الجزيرة العربية الأخرى، وتشير أيضاً إلى أنه كان موطن قوم من المزارعين وصيادي الأسماك لهم حضارة شديدة التعقيد ترقى إلى أقدم الأزمان، ولقد كانت للعصور الجليدية وما يعقبها من فترات دفينة دورها في زيادة ونقصان سكان الخليج والجزيرة العربية والتي تكونت نتيجة التغيرات المناخية التي حدثت في العالم في الزمن الذي يعرف باسم (البليستوسين) وعندما بردت الأرض دخلت مرحلة العصور الجليدية التي قدر العلماء نهاية آخرها بعشرة آلاف سنة مضت تقريباً، وقد تمثلت بأربعة أدوار تقريباً ارتفعت فيها درجة الحرارة ثلاثة مرات بين هذه الأدوار الجليدية، اجتاحت الخليج والجزيرة العربية خلالها أمطار غزيرة نمت على أثرها النباتات، وتكونت الأنهار والبحيرات، حيث كانت مناطق الجزيرة العربية بما فيها منقطة الخليج الذي تكون واحة القطيف جزءاً منه أكثر ملاءمة للمعيشة مما هي علية اليوم، وكانت تزخر بالعديد من فصائل الحيوانات كالظباء والأسود والنمور والوعول والغزلان وفرس النهر وغيرها، والدليل على ذلك ما يقوله العلماء عن صحاري الجزيرة العربية، وخاصة الربع الخالي، الذي نراه اليوم مجرد صحراء جرداء محرقة، فقد كانت هذه الصحراء فيما مضى وحتى وقت متأخر نسبياً يعود إلى أقل من عشرة آلاف سنة خلت، أرضاً وارفة تنعم بالحياة بما يتوفر بها من بحيرات تنمو بها أعشاب وتتكاثر بها مختلف أنواع الحيوانات. وما يقوله العلماء عن طبيعة الجزيرة في سالف عهدها نرى تأييداً له في بعض

أخبار وأشعار العرب، فقد ذكروا مواقع غياض وغابات وأجمه وآكام كانت مكتظة بالأشجار الضخمة كالنخل والدوم والحماط والكروم والبردي والسدر وغيرها، وكانت مأوى للحيوانات المفترسة وتقع في أماكن كثيرة متفرقة في منطقة الخليج والجزيرة العربية تبدو اليوم صحراوية. وما ذهب إليه بعض الباحثين إلى أن الكثير من أودية جزيرة العرب كانت أنهاراً في يوم من الأيام يبدو معقولاً، وحجتهم في ذلك ما وجدوه من ترسبات في تلك الأودية. وقد أشار (بطليموس) إلى نهر عظيم سماه (لار) قال إنه ينبع من منطقة نجران أي من الجانب الشرقي من السلسلة الجبلية ثم يسير نحو الجهة الشمالية الشرقية مخترقاً بلاد العرب حيث يصب في الخليج العربي. وأن صح زعم بطليموس، فمن المحتمل أن يكون ذلك النهر هو "وادي الباطن" ولعله كان جارياً في زمن بطليموس كما أشار إلى ذلك، أو كان وادياً رطب القيعان لم تكن عوامل الجفاف قد أثرت فيه كثيراً، ويرجع العلماء أنه ساعد في تكوين دلتا نهري دجلة والفرات بما أتى معه بحصباء ثقيلة ورمال خشنة يمكن رؤيتها حوالي منطقة الزبير بالعراق.

ومنذ بداية العصور الجليدية ومناطق الجزيرة بما فيها الخليج العربي الذي يشمل بمساحته واحة القطيف في ازدياد سكاني مستمر لم يطرأ عليه نقصان ملحوظ إلا منذ أقل من عشرة آلاف سنة مضت تقريباً حيث كان إنسان العصر الحجري في ذلك الزمن يجد وفراً غزيراً من الحيوانات التي يصطادها لقوته وسد بعض حاجياته وقد عاش الإنسان منذ آلاف السنين وربما مئات الآلاف من سنين العصر الحجري في منطقة الخليج، ويؤكد ذلك ما وجده علماء الآثار في منطقة الخليج وخاصة منطقة القطيف منها، فقد

أفادوا بأنهم عثروا على أدوات حجرية تعود للعصر الحجري القديم في عدة أماكن من منطقة الخليج تمثلت بفؤوس حجرية مختلفة الأحجام أكثر خشونة وأقرب إلى البدائية، ومع أن العصر الحجري القديم استمر زمناً طويلاً إلا أن الإنسان في الخليج العربي استطاع أن يحسن الأساليب التي يستعملها في صنع أدواته الحجرية بهذا العصر فقد وصل بها إلى مراحل حضارية مختلفة وجدت آثارها في منطقة الخليج العربي، وقد حدد علماء الآثار والحفريات أنها من بقايا العصر الحجري القديم.

أما بالنسبة للعصر الحجري المتوسط فقد عثر على آثاره في الخليج العربي بحيث استطاع إنسان الخليج خلاله أن يعمل إلى مرحلة حضارية أكثر تقدماً من العصر الحجري القديم فأنتج آلات أصغر حجماً وأكثر إتقاناً وجمالاً منها ما كان هلالي الشكل وسهاماً وفؤوساً تقل حجماً عن فؤوس العصر الحجري القديم.

أما العصر الحجري الحديث فيراه علماء الآثار أكثر وضوحاً في منطقة الخليج العربي فقد وجدت آثاره في عدة أماكن من المنطقة وخاصة واحة القطيف، يقول علماء الآثار أنه حتى الآن لم يحدد التقويم الزمني للعصر الحجري الحديث بكل إقحاماته المعروفة مثل استيناس الحيوان والزراعة ولكنهم يعتقدون بأن أول بوادر تمكين الإنسان من استيناس الحيوان وزرع النباتات في منطقة الخليج العربي ظهرت في الفترة ما بين عشرة آلاف سنة وخمسة آلاف سنة قبل الآن، وإن صح ما اعتقده الباحثون فمن المحتمل أن تكون معرفة الإنسان بحرفة الزراعة التي تتميز بها واحة القطيف وتربية الماشية هي التي فرضت عليه الإقامة الدائمة وعلمته حياة الاستقرار وبدأ

يقطن القرى والمدن والمستوطنات بأنواعها فاهتدى إلى إقامة حضاراته القديمة ذات الطابع التاريخي المميز والتي وجدت آثارها في عدة مواقع من الخليج العربي بعد أن تم اكتشافها من قبل البعثات الأثرية المتخصصة والتي أفادت بأنها توصلت إلى اكتشاف مستوطنات أثرية تعود إلى العصور الحجرية، وإن صح ما ورد بتقارير البعثات الأثرية التي عملت في المنطقة فلا يستبعد أن تكون منطقة الخليج العربي هي المنطقة التي أقيمت عليها أول حضارة عرفها الإنسان في العالم وانطلق من هذه الحضارة ليقيم حضاراته التي عرف فيها ببداية تاريخه.

١١

الحضارة العمانية

تشير الدراسات التاريخية إلى الصلات العديدة بين الحضارة العُمانية وحضارة الشرق القديمة في الصين والهند وبلاد مابين النهرين فضلا عن الصلات مع حضارات شرق البحر المتوسط ووادي النيل وشمال أفريقيا. وتؤكد الحفريات التي أجريت في ولاية صحار إن صناعة تعدين وصهر النحاس كانت من الصناعات الرئيسيه في عُمان قبل الميلاد بألفي عام.

ويبدو من المؤكد إن دولة مجان التي ورد ذكرها في صحف السومرين هي ذاتها ارض عُمان. كما إن مادة اللبان المعروفة حاليا في عُمان والذي اعتادت ملكة سبأ إن تقدمه لسليمان عليه السلام كان ينتج في محافظة ظفار. ومنذ القدم نشأت في عُمان مجتمعات مستقرة احترفت التجارة والزراعة وصيد الأسماك، يرجع بعض المؤرخين نشأتها إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

وتذكر روايات التاريخ إن اثنتين من القبائل العربية قد نزحتا إلى عُمان في القرن الثاني قبل الميلاد، تعرف أحداها باليمنيين وهم الذين وفدوا إليها مباشرة من جنوب غرب الجزيرة العربية والأخرى قبيلة نزار التي جاءت من نجد.

وعندما انهار سد مأرب عام ١٢٠ ميلادية تكاثرت هجرات القبائل العربية إلى عُمان وكانت أولى الهجرات هي هجرة قبيلة الازد بقيادة مالك بن فهم الازدي، واليها تنتمي أسرة البوسعيدي الحاكمة.

وقد شكلت عُمان على امتداد التاريخ مركزاً حضارياً نشطاً تفاعل منذ القدم مع مراكز الحضارة في العالم القديم. وكانت واحدة من المراكز الحيوية على طريق الحرير بين الشرق والغرب، حيث كانت من أكثر المراكز التجارية ازدهاره في المحيط الهندي حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وامتدت علاقاتها إلى مختلف القوى الدولية منذ وقت مبكر، وتفاعلت بقوة مع محيطها الخليجي والعربي والدولي باعتبارها مركزاً للتواصل الحضاري مع الشعوب الأخرى. حيث كانت لعُمان علاقات وصلات مع العديد من الدول في مراحل تاريخية مبكرة منها الصين، والولايات المتحدة وبريطانيا، وفرنسا، واستقبل سفراؤها باحترام في عواصم تلك الدول وغيرها قبل قرون من الزمن. وبينما تشير الدراسات التاريخية إلى الصلات العديدة بين الحضارة العُمانية وحضارة الشرق القديم في الصين والهند وبلاد ما بين النهرين فضلا عن الصلات مع حضارات شرق البحر المتوسط ووادي النيل وشمال أفريقيا، فإن الدور الذي اضطلعت به عُمان في نشر الدعوة الإسلامية منذ دخولها طواعية إلى الإسلام في عهد الرسول ﷺ أوسع بكثير من مما هو معروف في كثير من الدوائر، باستثناء الدوائر العلمية المتخصصة. لقد مثل التاريخ العُماني سلسلة متصلة الحلقات أسوة بتاريخ الأمم والشعوب ذات الحضارة والدور التاريخي الذي يمر بمراحل مختلفة، وبينما تمكنت عُمان خلال حكم اليعاربة الذي بدأ عام ١٦٢٤ من طرد البرتغاليين من السواحل العُمانية، والخليج العربي والمحيط الهندي، فإن الدولة (البوسعيدية) التي بدأت على يد مؤسسها الإمام أحمد بن سعيد عام ١٧٤٤م، والتي يمثل جلالة السلطان قابوس بن سعيد المعظم – يحفظه الله – امتدادا لها استطاعت على مدى قرنين ونصف القرن أن تضع عُمان في مصاف الدول القوية

والمؤثرة، وذلك باستثناء بعض مراحل الضعف أو العزلة أو الخلافات الداخلية، والتي كانت تؤدي إلى نوع من الانكفاء الذاتي لأسباب عديدة محلية واقليمية ودولية وهو ما وضعت مسيرة النهضة المباركة حداً له.

عرفت عُمان في المراحل التاريخية المختلفة بأكثر من اسم ومن أبرز أسمائها (مجان) و(مزون) و(عُمان) حيث يرتبط كل منها ببعد حضاري أو تاريخي محدد. فإسم (مجان) ارتبط بما اشتهرت به من صناعة السفن وصهر النحاس حسب لغة السومريين حيث كانت تربطهم بعُمان صلات تجارية وبحرية عديدة، وكان السومريون يطلقون عليها في لوحاتهم (أرض مجان). اما اسم (مزون) فإنه ارتبط بوفرة الموارد المائية في عُمان في فترات تاريخية سابقة وذلك بالقياس إلى البلدان العربية المجاورة لها. وكلمة (مزون) مشتقة من كلمة (المزن) وهي السحاب ذوالماء الغزير المتدفق. ولعل هذا يفسر قيام وازدهار الزراعة في عُمان منذ القدم وما صاحبها من حضارة أيضا. وبالنسبة لإسم (عُمان) فإنه ورد في هجرة القبائل العربية من مكان يطلق عليه عُمان في اليمن، كما قيل أنها سميت بعُمان نسبة إلى عُمان بن إبراهيم الخليل عليه السلام، وقيل كذلك أنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى عُمان بن سبأ بن يغثان بن إبراهيم. وكانت عُمان في القديم موطنا للقبائل العربية التي قدمت إليها وسكن بعضها السهول واشتغلت بالزراعة والصيد، واستقر البعض الآخر في المناطق الداخلية والصحراوية واشتغلت بالرعي وتربية الماشية.

لقد كانت رسالة الإسلام منعطفا هاما في تاريخ عُمان، حيث استجاب أهل عُمان لدعوة الرسول ﷺ ودخلوا الإسلام طواعية وسلما، ثم ما لبثوا إن لعبوا دورا رائدا في تثبيت دعائم الدعوة ونشر راية الإسلام شرقا وغربا.

وكانت عُمان من أوائل البلاد التي اعتنقت الإسلام في عهد الرسول الكريم، فلقد بعث الرسول صلى الله علية وسلم عمرو بن العاص إلى جيفر وعبد ابني الجلندي بن المستكبر ملك عُمان حينذاك ليدعو إلى الإسلام وكان ذلك حوالي عام ٦٣٠ ميلادية، ومما جاء في رسالة النبي ﷺ إلى جيفر وعبد ابني الجلندي:

"بسم الله الرحمن الرحيم - من محمد رسول الله إلى جيفر وعبد ابني الجلندي السلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنني ادعوكما بدعاية الإسلام اسلما تسلما فإني رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القول على الكافرين وأنكما إن أقررتما بالإسلام وليتكما وان أبيتما أن تقرا بالإسلام فان ملكما زائل عنكما وخيلي تطأ ساحتكما وتظهر نبوتي على ملككما".

وقد أجابا الأخوين الدعوة واسلما طواعية وأخذا يدعوان وجوه العشائر والقبائل إلى الإسلام فاستجاب أهلها لدعوة الحق عن قناعة ورضى، ونتيجة لاتصال بعض أهل عُمان المباشر بالرسول ﷺ أفرادا وجماعات انتشر الإسلام في عُمان انتشارا واسعا، وقد أثنى الرسول الكريم على أهل عُمان لأنهم آمنوا بدعوته مخلصين دون تردد أو الخوف او الضعف وقد دعا الرسول الكريم ﷺ قائلا (رحم الله أهل الغبيراء امنوا بي ولم يروني) ولقد دعا الرسول ﷺ لأهل عُمان بالخير والبركة وكذلك أشاد بهم الخليفة أبوبكر الصديق رضي الله عنه.

وخلال السنوات الأولى للدعوة الإسلامية ساهمت عُمان بدور بارز في حروب الردة التي ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ، كما شاركت في الفتوحات الإسلامية العظيمة برا وبحرا خاصة في العراق وفارس وبلاد السند،

بالإضافة إلى المشاركة في الفتوحات الإسلامية لعدد من البلاد الأخرى في المنطقة وخارجها.

على إن الإسهام الأبرز لعُمان تمثل في الواقع في قيامها عبر نشاطها التجاري والبحري الكبير خاصة خلال القرن الماضي بالتعريف بالإسلام ونشره في كثير من مناطق الساحل الشرقي لإفريقيا والى مناطق وسط أفريقيا التي وصل إليها العُمانيون كما حمل العُمانيون الإسلام معهم إلى الصين والموانئ الآسيوية التي تعاملوا معها وفي نفس الوقت مثل الإسلام والقيم الإسلامية رابطا قويا بين العُمانيين حافظوا عليه وتمسكوا به والتفوا حوله.

في أوائل القرن السادس عشر وتحديدا في عام ١٥٠٧م استطاع البرتغاليون إن يسيطروا على أجزاء كبيرة من السواحل العُمانية وذلك بعد مقاومة شديدة من العُمانيين.

وبرغم طبيعة الأوضاع الداخلية في عُمان في ذلك الوقت إلا إن البرتغاليين أو غيرهم لم يستطيعوا تجاوز بعض المناطق الساحلية المحدودة وظلت مناطق الداخل في عُمان بمثابة العمق الاستراتيجي الذي انطلقت منه ومن بعض المناطق الساحلية حملات المقاومة الوطنية العُمانية حتى تم التخلص من الاحتلال البرتغالي بعد نحو قرن ونصف القرن.

يمثل تولي الإمام ناصر بن مرشد إماما على عُمان في عام ١٦٢٤م بداية حكم اليعاربة. وقد تمكن الإمام ناصر بن مرشد من خلال توحيد البلاد تحت قيادته للمرة الأولى منذ سنوات عديدة وعبر تجهيز أسطول بحري قوي تمكن من تقليص نفوذ البرتغاليين وتحرير بعض المدن الساحلية منهم:

وقد واصل الإمام سلطان بن سيف هذه المهمة الجليلة في مطاردة البرتغاليين خاصة وانه توفرت له الكثير من عناصر القوة المادية والعسكرية حتى تم تحرير مسقط عام ١٦٥٠م وهو ما كان إيذانا بأفول نجم البرتغاليين من منطقة الخليج ككل. والجدير بالذكر إن القوات العُمانية طاردت البرتغاليين إلى سواحل الهند وشرق أفريقيا

تمثل مبايعة الإمام أحمد بن سعيد الذي كان والياً على صحار وما حولها في عام ١٧٤٤م بداية لحقبة جديدة في التاريخ العُماني، استمرت بمراحلها المختلفة على امتداد المائتين والخمسة والستين عاماً الأخيرة.

وكان تولي الإمام أحمد بن سعيد الإمامة نزولاً على رغبة أهل الحل والعقد في عُمان في ذلك الوقت بالنظر لمواقفه وشجاعته، وبخاصة في تخليص البلاد من الغزاة الفرس. وقد تمكن الإمام أحمد بن سعيد الذي أسس الدولة البوسعيدية من إعادة توحيد البلاد وإخماد الفتن الداخلية، وإنشاء قوة بحرية كبيرة إلى جانب أسطول تجاري ضخم، وهو ما أعاد النشاط والحركة التجارية إلى السواحل العُمانية. كما أعاد لعُمان دورها في المنطقة، وليس أدل على ذلك من أنه أرسل نحو مائة مركب تقودها السفينة الضخمة "الرحماني" في عام ١٧٧٥م إلى شمال الخليج لفك الحصار الذي ضربه الفرس حول البصرة في ذلك الوقت بعد استنجاد الدولة العثمانية، وهو يجسد حقيقة أن عُمان لم تخضع أبداً للدولة العثمانية، واستطاع الأسطول العُماني فك الحصار عن البصرة، وقد كافأته الدولة العثمانية بخراج البصرة فترة من الزمن.

وبعد أن توفي الإمام أحمد بن سعيد في الرستاق ١١٩٨هـ/١٧٨٣م والتي اتخذ منها عاصمة له، خلفه عدد من الأئمة والسلاطين البارزين الذين

حافظوا على استمرار حكم أسرة البوسعيد. وفي عهد حفيده حمد (١١٩٩هـ / ١٧٨٤م ـ ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م) انتقلت العاصمة من الرستاق إلى مسقط لتستقر فيها حتى الآن.

وبغض النظر عن فترات الضعف والانكماش والتخلف التي حدثت خلال القرنين الماضيين، ونصف القرن الأخير، إلا أن هذه الحقبة قد أثمرت أربعة إنجازات هامة في مسيرة عُمان التاريخية:-

١- بناء إمبراطورية عُمانية كبيرة امتدت لتشمل مناطق عديدة في شرق أفريقيا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. وقد فرضت هذه الإمبراطورية وجودها البحري في المحيط الهندي، وأقامت علاقات سياسية متوازنة مع القوى العظمى في ذلك الوقت، خاصة بريطانيا وفرنسا، بالإضافة إلى الولايات المتحدة.

٢- التغلب على مختلف التحديات الداخلية والإقليمية، وغرس أساس قوي لعلاقات متوازنة خليجياً وإقليمياً ودولياً أتاح للسلطنة الحفاظ على مصالحها الوطنية.

٣- بناء دولة عصرية مزدهرة تمثل الأم بالنسبة لكل أبنائها.

٤- وقبل ذلك وبعده تحقيق استمرارية ووحدة التاريخ العُماني.

وتعد نزوى تاريخ تألق عبر سنين عديدة... بيضة الإسلام... منبع العلماء إنها نزوى دوحة ورافة الظلال.. تستقرئ التاريخ من بين حاراتها وتستلهم الطبيعة من أفلاجها وعيونها وأوديتها أنها بحق طبيعة نزوية تتوزع في كل شبر من أراضيها، نزوى اليوم عروس في أحلى حلل التاريخ أذا زرتها

فإنك تزور التاريخ العُماني وتتأمل إبداع العُمانيين على كل شبر من مدينة العلم والعلماء، فهيا نتجول ونتعرف على بيضة الإسلام.

تتخذ موقعها في قلب المنطقة الداخلية من السلطنة، تجاورها ولايات أدم ومنح وأزكي من الجنوب والشرق، وولايتا الحمراء وبهلا من الغرب، ومن الشمال يطل عليها الجبل الأخضر.

نزوى تلك الولاية العريقة التي أبرز لها التاريخ أحداثا وبطولات وأمجاد بعلمائها العظماء الذين سطروا عن التاريخ بمؤلفاتهم التي تثري المكتبات، وسميت نزوى نسبة إلى جبل بالغرب منها، وقيل نسبة إلى مورد ماء تحت قلعتها الشهباء، وقد أطلق على مدينة نزوى مجموعة من الأسماء منها تخت ملك العرب وبيضة الإسلام وذلك لكثرة فضلها وعلمائها.

حين تزور نزوى فإنك تزور الماضي الذي عاشه الأجداد وتصافح الحضارة العُمانية وتعانق الشموخ المستمد من البيئة التي شيد معالمها أبناؤها.. التاريخ يحكي بصمت وهدوء عن هذه المدينة الراقية بالتراث الناصع بين أحضان التاريخ التليد بأمجاد وبطولات، نزوى كانت بؤرة الإشعاع العلمي، وهنا كانت مساقط الرؤوس الفكرية التي نذرت نفسها لعطاء يتجدد لا يقبل الجمود باعتبار هذا العطاء المتجدد مدخلا صحيحا لإثراء الحضارة الإسلامية وإبراز وجهها المشرق بشمس الحقيقة، مدينة نزوى موئل العلماء والفقهاء ومهد القادة العظماء سنوات عُمان المجيدة الزاهرة ردت إليها اعتبارها وحفظت له مكانتها السامية وقدرها الجليل في نفوس العُمانيين، وقد جاء الاحتفال بالعيد الوطني الرابع والعشرين لنهضة عُمان الحديثة نوفمبر ١٩٩٤ في مدينة نزوى العاصمة الإدارية للمنطقة الداخلية تمجيدا

لدورها الحضاري والفكري في حياة هذا الوطن الذي يعمل بكل طاقاته وإمكاناته من اجل مستقبل أفضل أملاً أن تتحول أماله وطموحاته إلى واقع مشهود.

وقد احتلت مدينة نزوى منذ العصور السابقة مكانة تاريخية مرموقة باعتبارها عاصمة عُمان لفترة طويلة وكانت القلب النابض لجنوب شرق شبه الجزيرة العربية لما تمتعت به من مميزات طبيعية متعددة فاتخذها أئمة عُمان عاصمة لهم ومركزا اقتصاديا وسياسيا آثارها وتراثها متحف طبيعي ضخم يروي فصلا هاما من كتب الحضارات العُمانية الأصيلة منذ فجر الإسلام.. وما يذكر عن نزوى إن فيها ثاني مسجد أقيم في عُمان بعد مسجد المضمار في سمائل وهو مسجد سعال الذي يقال أنه بني في السنة الثانية من الهجرة ويقع في منطقة سعال وسط الحارة المسماة بحارة الجامع ومن المعالم التراثية مسجد الشواذنة ومسجد العين ومسجد الشيخ وبمنطقة تنوف مسجد الشرع وأيضا حصن تنوف على سفح الجبل الأخضر بقرية تنوف ومن المعالم الأخرى التاريخية بيت سليط وهو حصن يقع في علاية نزوى. وعندما تقلب صفحات التاريخ أثارها نفتح ملفا كاملاً ونعيد قراءة ملحمة تاريخية ومن آثار نزوى حصن نزوى وقلعة نزوى الشهباء التي تبرز معلما إنسانيا ذا رافد حضاري وتاريخي والتي جاءت وليد فكر مهندس عُماني وعجنت طينتها أنامل عُمانية واحتمت بها انف عُمانية وعاصرت الزمن العُماني وعاصروها جيلا بعد جيل.. قلعة تتيح للزائر فرصة المثول بين يدي الأمس وبين ألف قصة وحكاية.

تعد نيابة بركة الموز إحدى القرى الشهيرة بضواحيها ومعالمها الأثرية،

حيث تتمازج معا في رسم لوحة بديعة لقرية عُمانية جميلة، وبها حصن بيت الريدة الذي يتألف من طابقين، ويعود تاريخ بنائه إلى القرن السابع عشر الميلادي، وتخفي أجزاء جدرانه السميكة ذات الأبراج المشيدة من أجر الطين (الجص) في داخلها معماراً أنيقا يكشف عن أقواس متعددة وسقوف مطيلة، ونقوش جميلة متقنة، وفي نيابة بركة الموز أكثر من موقع للزائر أن يقضي فيه أوقاتا ممتعة، كما أن يمكن أن يتجول داخل حارتها القديمة، ويبرز مسجدها مسجد اليعاربة أحد المعالم التاريخية في بركة الموز، ويعد فلج الخطمين نهرا دافقا بالماء العذب، وهو من الأفلاج الغيلية التي تنبع من سفح الجبل الأخضر ثم يمضي في سواقيه على ضواحي القرية بما يشبه الحلقة الدائرية، فينتهي إلى منطقة قريبة جدا من ذلك المنبع.

أما نيابة الجبل الأخضر فتعد أحد أجمل المزارات السياحية في مواسم تفتح الأزهار العطرية مثل الورد والآس والزعفران والنرجس، وتضع ثمار المشمش والخوخ والرمان والجوز واللوز والتين والكمثرى والبرقوق والسفرجل وغيرها من الفواكه.

يقع الجبل الأخضر في ارتفاع يزيد على عشرة آلاف قدم عن مستوى سطح البحر، وهو ذو طبيعة خلابة وطقس معتدل صيفا وبارد شتاء، وتتوزع أشجاره المثمرة على مسطحات زراعية ذات تدرج هندسي بديع، شيدت قبل مئات السنين، مما يكشف عبقرية الإنسان العُماني في تطويعه لجغرافيا المكان، كما تم استغلال المواقع المنحدرة التي تصلح للزراعة ويصل إليها الماء الذي يتدفق عبر قنوات صغيرة بسهولة، ومن يقف عند الجبل الأخضر يدرك أن الإنسان في هذه القمم والسفوح العالية بذل جهدا كبيرا

من أجل أن يتلاءم مع طبيعة الجبل، وتكمن عبقرية الإنسان في تحويل السفوح إلى مدرجات استطاع أن يزرعها بأندر الأشجار التي لا تنمو إلا في المناطق الباردة.

مدينة نزوى مدينة التاريخ والتراث تصنع لوحة يختلط فيها الحديث بالقديم والمعاصرة بالأصالة وأول ما يصافح الزائر فندق نزوى كاستراحة يوفر خدماته لنزلائه.. ومن بعيد يلوح السوق بزي الفن المعماري الأصيل فقد توسعت منطقة السوق وشيد سوق جديد يعتبر تحفة معمارية له صلة وثيقة بفن العمارة الإسلامية الأصيلة ومن يتجول داخل السوق الجديد يدرك كم هي عظيمة النهضة المباركة وكم هو الجهد واضحا لأحياء معالم الأمس.. السوق الجديد أشبه بحارة تأخذ المتجول إلى قصور العمارة الإسلامية القديمة.. فالسوق رغم أنه مصمم لبيع مختلف المنتوجات الغذائية وباقي المبيعات الحرفية كالمصنوعات الفضية والذهبية إلا أنه يعتبر بحق مزارا سياحيا يلفت النظر وإنجازا جديدا لعصر النهضة يضاف إلى قائمة المنجزات الأخرى التي تحققت في عهد النهضة المباركة.

تزخر بيضة الإسلام بالعلماء على مر العصور، حيث كانت قديما مركز العلم؛ حيث كانت جوامعها ومساجدها الشهيرة مدارس تخرج فيها أفواج من العلماء والمفكرين والأدباء والفقهاء ومن علماء وفقهاء بيضة الإسلام: الإمام الجليل التابعي جابر بن زيد والعلامة الجليل أبو عبدالله الحتات بن كاتب الهميمي والعلامة أبو المنذر البشير بن المنذر العقري النزوي والإمام محمد بن عبدالله بن أبي عفان اليحمدي والإمام الوارث بن كعب الخروصي والإمام غسان بن عبدالله اليحمدي والعلامة مسبح بن عبدالله النزوي

والعلامة سليمان بن عثمان النزوي والإمام عبد الملك بن حميد العلوي والإمام المهنا بن جيفر اليحمدي والعلامة عزان بن الصقر اليحمدي والعلامة الصلت بن خميس الخروصي والإمام الصلت بن مالك الخروصي والإمام راشد بن النظر اليحمدي والإمام عزان بن تيم الخروصي والعلامة خالد بن سعوة النزوي والإمام محمد بن يزيد الكندي والإمام محمد بن الحسن الخروصي والإمام الصلت بن قاسم والعلامة الحسن بن زياد النزوي والعلامة نبهان بن عثمان النزوي والعلامة محمد بن الحواري النزوي والعلامة أبو زياد الوضاح والعلامة أبو صالح زياد بن الوضاح والعلامة سليمان بن الحكم النزوي والعلامة الحسن بن سعيد النزوي والعلامة محمد بن القاسم بن مسبح والعلامة مسعده بن تميم النزوي والعلامة المنذر بن الحكم النزوي والعلامة عبدالمقتدر بن جيفر والعلامة عبدالله بن الحكم النزوي وغيرهم العديد من العلماء والفقهاء والأدباء.

نزوى هذه المدينة التاريخية العريقة التي احتلت مكانة عالية وبرزت للعيان عما يمثله تراثها الشامخ وطبيعتها الجميلة قد تغنى بها الشعراء وها **هو الشاعر السيد هلال بن بدر البوسعيدي في قصيدته النزوية يقول:**

حي نزوى تحية الخلصاء
وأهد قومي مودتي وإخائي
ثم طف هناك وانظر
اثر الصالحين والأولياء
واتل تاريخها القديم وحدث
عن فعال الأئمة الفضلاء